

# أدب الاعتراف

عند زكي مبارك

د. عادل هندأوي

# مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

مصطفى عماد

الطبعة: الأولى

الكتاب: أدب الاعتراف (عند زكي مبارك)

المؤلف: د. عادل هندراوي

تصنيف الكتاب: دراسة

التصميم والإخراج: م/ محمد سالم

المقاس: ٢٠ × ١٤

رقم الإيداع: ٢٠١٩ / ٠٠٠٠٠

الترقيم الدولي: 0-0-000-977-978

العنوان : ٣ صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : Yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

## إهداء

إِلَى كُلِّ مَنْ يُقَدِّمُ نَفْعًا لِلْبَشَرِيَّةِ  
قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ عَنِ الْحَيَاةِ ..



## المقدمة

منذ أن خلق الله الإنسان وأنزل آدم (عليه السلام) إلى الأرض، وهو في محاولة دائبة للوصول إلى حقيقة نفسه، ولن يتسنى له ذلك إلا بالاعتراف والتطهير الذي يكشف النقاب عن حقيقة النفس الإنسانية دون خوف.

ومنذ أن هبط الإنسان إلى الأرض، واندمجت روحه السماوية بمادية الأرض الطينية، وهو يقترف الأفعال والأعمال والأقوال التي تجعله دائماً في عملية تأنيب مستمر للضمير، يحاول الفرار منه، فلا يجد أمامه سوى الإقرار بأفعاله وأقواله.

والتأمل في التاريخ الإنساني، يجده مليئاً بالقصص التي تدور حول الاعتراف، أو الإقرار بالذنب والتوبة من الوجهة الدينية<sup>(١)</sup> ومن هنا نشأ ما يعرف بأدب الاعتراف، الذي انتقل إلى مجال الدراسات الأدبية، واتخذ صوراً عدة: منها التراجم، ومنها السيرة الذاتية<sup>(٢)</sup> وصولاً إلى ما يُعرف بأدب الاعتراف.

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية: انظر، أحمد فريد، مواقف إيمانية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٩م ص ٢٦٣-٣٠٧.

(٢) من أشهر كتب السيرة الذاتية: (الأيام) لطف حسين، و(حياتي) لأحمد أمين، و(أنا) للعقاد، و(مذكرات نائب في الأرياف) و(عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم.

ومن أشهر الأدباء المعاصرين الذين كتبوا في الاعتراف: الدكتورة (زكي مبارك)<sup>(١)</sup> الذي اتخذ عنده هذا الجانب آفاقاً رحبة: شعراً ونثراً، وله فيه نتاج غير قليل، وإن لم يفرد للحديث عنه كتباً خاصة، وإنما جاءت اعترافاته في ثنايا كتبه الكثيرة، ومقالاته التي لا تحسب بالعشرات بل بالمئات والألوف.

ويمكن الإشارة - منذ البدء - إلى أن ما قدمه (زكي مبارك) في هذا المجال أكبر وأضخم وأصعب من أن نتناوله في مثل هذه الصفحات القليلة، ويرجع ذلك إلى سببين، الأول، إن نتاج (زكي مبارك) في هذا المجال موزع في ثنايا كتبه ومقالاته الكثيرة - كما أشرت - والسبب الثاني، يكمن في أن زكي مبارك لم يترك لنا مذكراتٍ أو كتباً تدلُّ على أنها قصة حياته، وهو ما اعترف به صراحة بقوله: "أنا لا أدون مذكرات لما يصادفني في حياتي من متاعب، وإنما اختزن ذلك في قرارة نفسي، فإذا لاحت فرصة دَوَّنتُ ما رأيتُ"<sup>(٢)</sup>.

(١) هو: محمد زكي عبدالسلام مبارك، واسم الشهرة: زكي مبارك، ولد في الخامس من أغسطس عام ١٨٩١ في (سنتريس) إحدى قرى محافظة المنوفية، وتوفي في ٢٣ يناير عام ١٩٥٢م.

انظر، فخر الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م، ج٣، ص٤٧. ولقّب بالداكتسره لحصوله على ثلاث درجات للدكتوراه: الأخلاق عند الغزالي، والتصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، والنثر الفني في القرن الرابع. (٢) البلاغ - ١٩ أغسطس ١٩٤٧ - الحديث ذو شجون.

وقد تم الاعتماد على مقالات وخواطر (زكي مبارك) الاعترافية، وخاصة تلك المقالات التي حملت عنوان (الحديث ذو شجون)، التي كانت أشبه بالاعترفات الصادقة؛ فقد قال فيها (زكي مبارك) كل شيء له وعليه.

ومع ذلك، فإنه قد تمّ التوصل إلى أن (زكي مبارك) كان في حرج من أن يقول هذه قصة حياتي؛ لأنه كان يدرك - فيما أعتقد - أن خيال الأديب تدخل فيها، وقام بتوشيات يقتضيها السياق الفني، وهو محق في ذلك؛ لأن "التراجم الفنية تستدعي ترتيباً خاصاً للوقائع والأحداث، مراعاة لشروط فنية خاصة، مما يبعد بها عن جو التاريخ كما وقع. ونحن لا نستطيع أن نقول على سبيل القطع الجازم والاعتقاد اللازم، إن شخصية العقاد هي كما تصورها قصة (سارة)، وشخصية توفيق الحكيم هي كما تصورها قصة (عصفور من الشرق)، وإن كان في تينك القصتين كثيرٌ من ملامح هاتين الشخصيتين؛ لأن للعمل الفني دخلاً كبيراً خطيراً في مسار الوقائع والأحداث"<sup>(١)</sup>. وهذا يعنى أن السير الذاتية لا يتحرى فيها الأديب الواقع كما هو، وإنما يرسم بها صورة حياة لنفسه.

ويعود اختيارنا لزكي مبارك نموذجاً لأدب الاعتراف في ثقافتنا

(١) عبد اللطيف عبدالحليم، المازني شاعراً، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٩٤،

العربية المعاصرة<sup>(١)</sup> لسببين، الأول: أنني لا أعتقد أن شخصية أدبية أوضح في ملامحها، وأصرح من شخصية (زكي مبارك) في كتاباته وخواطره؛ لأنه من السهل الوصول إلى شمائل هذه الشخصية من آثاره وكتاباته، فهو - كما سيوضح - من أكثر الكُتاب المعاصرين صراحة في الحديث عن نفسه، وأجرأهم في الكشف عن دوائله.

أما السبب الثاني: فهو أن (زكي مبارك) رغم أنه له مقالات لا تُعد ولا تحصى - ناهيك عن كتبه - فحتى الآن لم تُدرس كتاباته الاعترافية بصورة كافية.<sup>(٢)</sup> يضاف إلى السببين السابقين سببٌ ثالث

---

(١) ظهر كثير من الكتب التي تناولت أدب الاعتراف عند عدد غير قليل من الأدباء العرب المعاصرين منها:

- نزار وأنا: أطول قصيدة اعتراف، للمحاور مفيد فوزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

- أحمد عبدالمعطي حجازي، لم يبق إلا الاعتراف (شعر)، أخبار اليوم، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٨٩م.

- لويس عوض، أوراق العمر: سنوات التكوين، مكتبة مدبولي، ١٩٨٩م.

- عبدالناصر هلال، لويس عوض، الرديكالي الذي باح بسره للناس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

(٢) تناول عدد من الباحثين نتاج الدكتور زكي مبارك بالدراسة الأكاديمية نذكر منهم:

- محمد عبدالحكيم، زكي مبارك صحفياً، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، ١٩٨٤م.

- العربي درويش، زكي مبارك شاعراً، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٨٣م.

- عبدالصبور ضيف، زكي مبارك حياته وأدبه، رسالة دكتوراه، جامعة أسيوط،

١٩٨٠م.

وهو طموحي الشخصي في ايجاد توازن بين كتابات (زكي مبارك) في الأدب عامة والنقد خاصة، وبين كتاباته الاعترافية؛ لتضحى الرؤية أكثر عمقاً، وأوسع خبرة، وأصورة من صور العدل ورفع الظلم عن أديب كبير عاش مظلوماً، ومات مظلوماً؛ لأننا كما يقول بدر الديب "مازلنا نغمط الدكتور زكي مبارك حقه كواحد من أكبر نقادنا إن لم يكن أكبر نقادنا إلى الآن في نظري، ففي كثير من مقالاته جهد نقدي مبدع"<sup>(١)</sup>.

### تحرير مصطلح الاعتراف:

يتدخل مصطلح الاعتراف، ويتشابك مع عدد من المصطلحات الأدبية الأخرى التي تتشابه، أو تقترب معه في المعنى، كمصطلح السيرة والإقرار. ولاشك في أن تقديم تعريف محدد لمصطلح الاعتراف، هو إحدى الركائز الأساسية التي من خلالها يستطيع المتلقي التفريق بين الاعتراف، والإقرار، والسيرة الذاتية.

وبالنسبة لمفهوم السيرة الذاتية، يجدر الإشارة إلى أن هناك فرقاً بين مفهوم السيرة الذاتية، وبين رواية السيرة الذاتية، فالأولى تُعنى بها "ذلك النوع الأدبي الذي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما، تعريفاً

---

– عبدالمقصود عبدالغني، زكي مبارك حياته وأدبه، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٢م.

(١) بدر الديب، مجلة الكاتب – نوفمبر ١٩٧٥م – عن الأدب والفن.

يقصر أو يطول. فإن جانباً كبيراً من جوانب الحياة في هذه السيرة يقوم على التفكير والتأمل من جهة، والسلوك والعمل من جهة أخرى - لكنها - إلى جانب هذا وذاك فن أدبي جوهره التواصل اللغوي»<sup>(١)</sup> ويكتبها صاحبها أو يُمليها أو يحكيها، وقد يطلق عليها (الترجمة الذاتية أو القصدية) لأن صاحبها يكتبها أو يملئها بنفسه.

أما رواية السيرة الذاتية فهي " بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيط الأثر الذي خلفه في جيله"<sup>(٢)</sup> ولا يكتبها صاحبها إنما تسطرها أقلام الآخرين عنه، ولذا تُسمى بالسيرة الغيرية، أي التي يقوم الغير بكتابتها.

وعلى هذا، فإن كاتب السيرة الذاتية ذاتي قبل كل شيء، ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد عليها، أما كاتب السيرة الغيرية، فيقف موقف الشاهد لا القاضي، فهو ينقل السيرة كما يرى دون أن يصدر عليها أحكامه<sup>(٣)</sup>.

وبالنسبة لمفهوم الإقرار، فقد جاء في لسان العرب: أقر بالحق؛ أي اعترف به، وقد أقره عليه، وقرره بالحق غيره حتى أقر<sup>(٤)</sup>.

(١) عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، ١٩٩٢م، ص ١٥.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) انظر السابق، ص ١٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرين، دار المعارف، د.ت،

مادة [قرر].

أما بالنسبة لمصطلح الاعتراف - موضع الدراسة - فيدور في اللغة حول الإقرار، وهو مصدر اعترف بالشيء؛ أي أقر به، وهو مأخوذ من مادة (ع ر ف) التي تدل على معنيين: الأول تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض، ومن ذلك عُرِفَ الفرس، والآخر السكون والطمأنينة، ومنه المعرفة والعرفان، تقول عرف فلاناً عرفاناً ومعرفة، وهذا أمر معروف؛ لأن من عرف شيئاً أطمأن إليه، ومن أنكره توخّش منه ونبا عنه. ومن هذا المعنى قولهم: اعترف بالشيء، إذا أقر، كأنه عرفه فأقر به<sup>(١)</sup>. وجاء في الصحاح: والاعتراف بالذنب: الإقرار به واعترفت القوم إذا سألتهم عن خبر لتعرفه<sup>(٢)</sup>.

ويقال: عرف بذنبه عرفاً واعترف اعترافاً أقر به<sup>(٣)</sup> وضد الاعتراف الجحود والنكران وفي التنزيل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُوهَا﴾ (النحل: ٨٣) فالاعتراف بذلك قريب من معنى الإقرار السابق، ولا يختلف المعنى الاصطلاحي للاعتراف عن معناه المألوف في اللغة، وأرى أن الاعتراف هو عبارة عن إقرار الشخص بأفعاله

(١) انظر، أبا الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ٢٨١/٤، ١٩٩٩م.

(٢) انظر، إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م، ١٤٠٢/٤.

(٣) انظر، ابن منظور، لسان العرب، سابق مادة (عَرَفَ).

وأقوله، وبأفضال الآخرين عليه، لا يجحدها أو يتناساها، ولذا قيل: ومن يشكر المخلوق يشكر لربه.... ومن يكفر المخلوق فهو كفور<sup>(١)</sup>. ومن هنا يمكن القول: إن الاعتراف في معناه قريب من الإقرار، ولكنه يبتعد عن مفهوم السيرة الذاتية، التي قد يراعى فيها الأديب المحيط الذي يعيش فيه؛ مما يدفعه إلى الحذر في الكشف عن آرائه والاعتراف بأفعاله وأقواله؛ خوفاً من السلطة الحاكمة، أو حفاظاً على المكانة الاجتماعية التي وصل إليها الأديب وأسرته. أما في الاعتراف، فإن الكاتب ينقد نفسه، ويكشف عن دخالها، ويقر بأفعاله وأقواله إيجاباً وسلباً، ولا يقوم بتوشيات فنية يقتضيها العمل، وإنما يترك نفسه على سجيتها.

إذن هناك فرق كبير بين السيرة الذاتية والاعتراف، يتمثل في الحرية الممنوحة للكاتب في كليهما وعلى العكس من ذلك تماماً، نجد الاعتراف لا يلزم بأي شيء من قواعد الكتابة، ويتحلى بالموضوعية البعيدة كل البعد عن الزهو بالذات والإعجاب بها<sup>(٢)</sup>.

(١) أبو حاتم محمد بن حبان البستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٣٤٩.

(٢) حاتم دياب أحمد، أدب الاعتراف في نثر عبدالرحمن شكري، دراسة أسس الإبداع الفني، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الألسن، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٨م، ص ٦.

## الاعتراف في الثقافتين الغربية والعربية:

ارتبط الاعتراف في الثقافة الغربية بفكرة التطهير، ونُغنى بها الاعتراف داخل الكنائس أمام القسيس؛ لراحة الضمير «والاعتراف بهذا المفهوم ليس غامضاً عند الأوروبيين الذين مارسوه صراحة في أشكال متعددة من الأدب (مذكرات- رسائل- سير ذاتية)، ولعل من أبرز الاعترافات التي كان لها صدى في عالم الأدب والسياسة، اعترافات جان جاك روسو، التي تعد إلى حد ما دستور الثورة الفرنسية، وكذلك اعترافات القديس أوغسطين.

وهذا النوع من الأدب مستمد - فيما أعتقد - من التعميد أو الصلب الذي كان يُمارس؛ لإجبار المذنبين على الاعتراف والإقرار بما ارتكبه. أما عن الاعتراف في الثقافة العربية، فقد ارتبط هو الآخر بالدين، ولكنه على العكس من الاعتراف في الثقافة الغربية، فإذا كان الاعتراف في الغرب يكون بين المعترف ورب الكنيسة، فإن الأمر على خلاف ذلك في الثقافة العربية الإسلامية، حيث يكون الأمر بين المعترف والله تعالى دون وسيط، وهو ما عُرف بالإقرار بالذنب والتوبة والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعادة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال<sup>(١)</sup>. وقد استمد الأدباء والشعراء

(١) انظر، علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري،

دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٧٤.

العرب والمسلمون من التوبة والإقرار بالذنب مادة خصبة وثرية لهم، وليس أدل على ذلك من أشعار أبي العلاء المعريّ التي كانت صورة صادقة لحياته ورغباته، كما كانت أشعار أبي فراس الحمداني نوعاً من الاعتراف، توجه في معظمها إلى ابن عمه سيف الدولة الحمداني شاكياً إليه حاله وهو في الأسر.

كما كان شعر الغربية والحنين، تعبيراً صادقاً عن النفس المغتربة، واعترافاً صريحاً من قائله بآلام الغربية، كما هو الحال في بعض أجزاء الشوقيات.

وإذا يَمّمنا وجهتنا نحو النثر، نجده -هو الآخر- مليئاً بالنماذج الاعترافية، مثل (طوق الحمامة) لابن حزم، وما المقامات إلا نوع من الاعتراف يلجأ كاتبها لنقد العيوب السائدة في المجتمع، وإبداء رأيه فيها.

وفي بداية عصر النهضة، نجد ذكريات رفاة الطهطاوى في باريس المعروفة باسم (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي نشره في عام ١٨٣١م بعد قضائه حوالى ستة أعوام في البعثة العلمية التي أرسلها الوالي محمد علي إلى فرنسا عام ١٨٢٦م.

وإذا كانت النماذج الشعرية والنثرية السابقة، قد جاء الاعتراف فيها ضمن تلك الأعمال، فإن هناك نماذج نثرية جاءت متضمنة في أغلبها لاعترافات كاتبها، مثل رواية (الخبز الحافي) للروائي المغربي محمد شكري، وروايتي (الفيافي) و(بلاد الغربية) للكاتب السكندري

سعيد بكر، ورواية (عائد إلى حيفا) للروائي الفلسطيني غسان كنفاني. بما يؤكد أن هذا النوع من الأدب محكوم في نشأته وتطوره بأحوال المجتمع، وظروف الأديب نفسه، ومدى الشجاعة التي يتحلى بها في نقد ذاته أولاً، ثم المجتمع من حوله ثانياً.

وإذا كانت الدول الحديثة تتبّع وسائل عدة لحمل الأشخاص على الاعتراف باستخدام جهاز كشف الكذب، والتنويم المغناطيسي، فإن الاعتراف في الأدب على عكس ذلك تمامًا، فالأديب يلجأ إليه باختياره، دون انقضاء مرحلة معينة من مراحل حياته، وإنما هو سرد متتابع - وقد يكون غير منظم - لوقائع هذه الحياة بحلوها ومُرّها. فهذه الأعمال تكشف الحياة التحتية لمؤلفيها، وتعري في صراحة - إلى حد ما - المجتمع بإظهار عيوبه وسلبياته، فهي جميعاً تلنقي في محاور مشتركة كثيرة منها ارتباط الألم والتطهير البشري بفكرة الثورة، والتمرد على الواقع.

غير أن الكشف عن هذه المحاور المشتركة في أدبنا المعاصر ينبغي أن يمر - في رأيي - من خلال استخدام المنهج النفسي، الذي يكشف عن الدوافع الحقيقية وراء اعتراف الأديب العربي؛ لأن هناك علاقة وثيقة بين علم النفس، وتحليل الأعمال الأدبية، يتضح ذلك من أسماء الكتب الكثيرة التي تغذى المكتبة العربية بكثير من الدراسات النفسية حول الأديب وإنتاجه الأدبي<sup>(١)</sup>. كما ظهرت الكثير من النظريات

(١) من هذه الكتب:

النفسية المهمة بهذا الجانب، مثل: نظرية التحليل النفسي لفرويد، ونظرية الذات لكارل روجرز، ونظرية السمات لألبورت، وهي نظريات تساعد على فهم الشخصية المُعترفَة من زوايا متعددة، يجمع بينها كشف أغوار المُعترف، وتهدف إلى تفسير السلوكيات المحددة لها<sup>(١)</sup>.

فهذه النظريات النفسية ترى أن "الإبداع ليس إلا حالة خاصة قابلة للتحليل؛ لأن كل عمل فني ينتج عن سبب نفسي، ويحتوي على مضمون ظاهر وآخر خافٍ، مثله مثل الحلم أي: انعكاس لنفس المؤلف. من هنا كان لزاماً على دارس الأدب أن يتلمس بواعث الإبداع النفسية"<sup>(٢)</sup>.

### شذرات مطوية من اعترافات زكي مبارك:

يحتاج الحديث عن اعترافات زكي مبارك إلى مجهود مضمّن؛ لأنه لم يترك لنا - كما أشرنا - مذكرات يمكن أن نستشف منها جوانب

- 
- عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من أدبه، دار الكاتب اللبناني، ط ١، ١٩٨٠م.  
- عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط ١، ١٩٦٢م.  
- مصطفى سويف، الأسس النفسية في دراسة الأدب ونقده، دار المعارف، ١٩٦٧م.  
- عبدالعزيز شرف، الأسس الفنية للإبداع الأدبي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.  
(١) انظر، نبيلة الشوربجي، وعفاف دانيال، علم النفس والشخصية، الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م، ص ٢٩-٣٩.  
(٢) حاتم دياب أحمد، أدب الاعتراف في نثر عبدالرحمن شكري، سابق، ص ٢٠.

حياته، ولذا كان لزاماً علينا البحث الدقيق عن هذه الحياة بين سطور كتبه، ومقالاته الكثيرة، التي وقف فيها مُغرّداً خارج سرب أدباء عصره، وسبح ضد التيار، وسجل آراءه وأفكاره دون خوف، وخاض من أجل الدفاع عن آرائه وأفكاره أعنف المعارك والمساجلات الأدبية حتى سمّاه بعض نقادنا " الملائم الأدبي في ثقافتنا الحديثة"<sup>(١)</sup>. ولعل هذه الشذرات من اعترافات زكي مبارك هي المفتاح لشخصيته، التي تميزت بالصدق والصراحة حتى المؤلمة منها، والذي أكدها حديثه الدائم عن نفسه، الذي يُعد - في الحقيقة - ترجمة باطنية لا تخفي فيها خالجة من حياته، يرسلها متشحةً بروحه، وطريقته في المبالغة، والاعتداد بالنفس.

### أولاً: سنوات التكوين:

ونقصد بها نشأه زكي مبارك، وحياته الأولى في قريته (سنتريس)، وميلاده، وأسرته، وهي من الأمور الذي كان فيها زكي مبارك مفرطاً في الحديث عن نفسه خلالها، كأنه في حرج آثم إن لم يفض بذاته إلى القراء.

وإذا كان بعض الدارسين قد ذهب إلى القول بأن من "خلق العربيّ ألاّ يتحدث عن نفسه بقوله: أنا، ومن العجيب أن ذلك يجوز للشاعر ولا

(١) أحمد حسن الزيات، الرسالة، ٢٩ يونيو ١٩٤٢، الصفء بين الأدباء.

يجوز للكاتب<sup>(١)</sup>. فإن هذا القول لا ينطبق بأي حال من الأحوال على زكي مبارك، الذي جعل (الأنا) أساس معارفه ومسجلاته الأدبية. يقول زكي مبارك عن يوم مولده: " في الخامس من أغسطس ١٨٩١ ولدتني أمي، فأضيف إلى الوجود خيرٌ جديدٌ، وشرٌ جديدٌ " ويقول أيضاً: « وأنا مولود في الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١ في سنتريس منوفية<sup>(٢)</sup>. " فهو يعترف - بضمير الأنا - بأن يوم مولده كان فتحاً جيداً على الدنيا، سواء أكان بالخير أم بالشر. وقد علّق الكاتب الصحفي محمود صلاح على هذه الكلمات بقوله: " ولأن الشر لم يأت من زكي مبارك، بل كان الشر فيمن حوله، فقد غادر الحياة بعد كفاح مرير، صنع فيه من أجل الأدب الكثير"<sup>(٣)</sup>.

نشأ (زكي مبارك) في قرية (سنتريس) المطلة على الرياح المنوفية، وتقع بالقرب من فرع (رشيد)، مما جعلها مميزة بهوائها الطيب، ومناظرها الرائعة. وهو يعترف بأن هذه البيئة كانت السبب في نبوغه بوصفه شاعراً فيقول:

في سنتريس وروضها ..... نبع الصدوح العندليب

(١) حاتم دياب، أدب الاعتراف، سابق، ص ٣.

(٢) زكي مبارك، ديوان: قصائد لها تاريخ، دار الشعب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٠٩.

(٣) أخبار اليوم - ٦ أغسطس ١٩٧٧ - الدكتورة زكي مبارك.

(٤) قصائد لها تاريخ، سابق، ص ١٠٩-١١٠.

من قلبه شعر يثور ..... كأنه وهج اللهب  
وسرى اللهب بشعره ..... فغدا أزهري من مشيب<sup>(٣)</sup>

وفي (سنتريس) تعلم زكي مبارك الجد والعمل المتواصل، ومن بيئتها اكتسب الصراحة والقوة وطيبة القلب، مما جعله يفخر دومًا بأنه فلاح، وبأن أثر الفأس والمحراث منقوشة على يديه، وبأن أخلاق القرية تلازمه أينما كان، فيقول: "وقد اشتغلت بالفلاحة في أملاك أبي، وكانت أملاكًا مبعثرة في أراضٍ كثيرة، فاقترحت على أبي أن نؤجر بعضها وأن نزرع الباقي، فقال أبي أفضل من هذا أن نزرعها كلها بأيدينا"<sup>(١)</sup> وهذا ما يفسر لنا اعتماد زكي مبارك على نفسه طوال حياته، وعدم لجوئه للوساطة، أو المحسوبية في شق طريقه.

والحقيقة أن زكي مبارك قد أكثر من الحديث عن نشأته في قرينته في كتبه، ومقالاته وأشعاره، حتى إنه كان يكتب مقالًا ثابتًا كل عام في جريدة (البلاغ) تحت عنوان (العيد في سنتريس) وجعل من نفسه شاعرًا، وجعل سنتريس من أخصب البلاد وأهلها من أخصبها، فهو يقول "وأخصب البلاد في مركز أشمون، هي سنتريس، وأخصب بقاع سنتريس هو ما ورثته عن أبي وجدي، وأجمل دار في سنتريس، هي

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد وتقديم، كريمة زكي مبارك، مطبعة الفجالة الجديدة، ١٩٨٨م، ص ١٤.

دار شاعر سنتريس" (١).

وقد أحسَّ معاصرو (زكي مبارك) بمكانة (سنتريس) من نفسه، وتباروا بذكر اسمها تكريمًا لشخصه، ومن هؤلاء الشاعر إبراهيم ناجي حين قال في قصيدته (الدكتور زكي مبارك في سنتريس، وفي الأزهر، وفي باريس) محتفياً بزكي مبارك بعد حصوله على الدكتوراه الثانية من فرنسا:

في حمى سنتريس شب غلام .... شاعري الكلام والأنظار  
أزرق العين هادئ هدأة البحر .... بعيد الرضّي بعيد القرار<sup>(١)</sup>  
نشأ زكي مبارك - إذن - نشأة ريفية، كان يعتز بها في كل بيئة هو فيها، على حين يأنف بعض الأدباء - إن كانوا من الريف - من كلمة فلاح، أما زكي مبارك، فكان يفخر دائماً بهذا الوصف، ويعتبره وساماً يتحلى به في هذه الحياة، ليصدق فيه قول أحمد زكي باشا: "إن زكي مبارك عاش في باريس ما عاش، ظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس"<sup>(٢)</sup>. "وكما اعترف زكي مبارك بفضل سنتريس عليه، فكذلك اعترف بفضل والديه عليه، أما والده فكان له الفضل في اتصال زكي مبارك بالطرق الصوفية؛ فقد كان والده متصوفاً صادق التصوف،

(١) زكي مبارك، الحديث ذو شجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ٦٥.

(٢) كريمة زكي مبارك، مقدمة ديوان: قصائد لها تاريخ، ص ١٤.

(٣) محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، مكتبة مصر، ٢٠٠٠، ص ٤٢.

وكان قد أخذ العهد على شيخ اسمه (أبو زيد)<sup>(١)</sup>. ومن هنا بدأ اتصاله بالصوفية، فدرج على احترامهم، بل أخذ ينشد كلامهم، ويحفظ بعض الأوراد الشاذلية<sup>(٢)</sup>. ولعل اتصال زكي مبارك بالصوفية في هذه الفترة المبكرة من حياته - بفضل والده - كان من أظهر العوامل التي وجهته - فيما بعد - إلى أن يؤلف رسالتيه الأخلاق عند (الغزالي) والتصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق.

ويعترف (زكي مبارك) بفضل والده، ودوره في إكمال دراسته في مصر وفي فرنسا، يعترف بذلك شعراً ونثراً، ومن ذلك قوله شعراً:

مازلت أمرح في نغمي وعافية .. من نيلك الجزل ومن رأيك الحسن  
وأسهر الليل في علم وفي أدب .. أبغي رضاك عن قصدي وعن سنن  
فاليوم أهديك ما أبدعت من أثر .. أبقى على الزمن الباقي من الزمن<sup>(٣)</sup>

وبعد وفاة الوالد رثاه (زكي مبارك) نثراً معترفاً بأنه فقد كنزاً غالياً: «الآن أشعر أنني فقدت كنزاً من الكنوز الغالية، فقد كان يروق لي أحياناً أن أدعو بعض الكبراء لزيارة سنتريس، وكنت في ذلك أمثل الأثرة والأنانية، كنت أحب أن أقول: هذا أبي ملء العيون والقلوب، فأصبحت محروماً من تلك المتعة النفسية، وعدت وليس بي

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص ١٩.

(٢) العربي درويش، زكي مبارك شاعراً، سابق، ص ١٩.

(٣) زكي مبارك، ديوان زكي مبارك، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٣م، ص ١٠٢.

من الحسب والنسب إلا ذكرك في قلوب من عرفوك<sup>(١)</sup>. كما يعترف بفضل أمه عليه كاتبًا وشاعرًا بقوله:

«وأمي هي التي ألهمتني روائع ما أنتج، وهي التي أخرجت من سنتريس وأنجبت أعظم كاتب وأجمل شاعر<sup>(٢)</sup>. ولعل السبب في حرص زكي مبارك بالاعتراف بفضل والديه عليه راجع إلى دورهما - كأسرة مصرية نموذجية - في النبوغ العلمي الذي وصل إليه، خرج منها إلى المدينة، وما طرأ عليه من تحولات كمًّا وكيفًا<sup>(٣)</sup>.

## ثانياً: مراحل التعليم

### ١- في الأزهر الشريف:

كان لوالد زكي مبارك من الفهم الناضج ما لم يكن لنظرائه من أهل قريته، فما إن أتم زكي مبارك حفظ القرآن الكريم، حتى ألحقه والده بالأزهر الشريف؛ لشغفه بالعلوم الدينية. كان ذلك في عام ١٩٠٨، وكان عمر (زكي مبارك) وقتها سبعة عشر عامًا<sup>(٤)</sup>. وفي الحقبة الأزهرية، أظهر زكي مبارك تمرده على علومه وما يدرس به، فاتجه

(١) زكي مبارك، بقلم زكي مبارك، سابق، ص ٦٦.

(٢) السابق، ص ٢٢.

(٣) انظر، لويس عوض، أوراق العمر، مرجع سابق، ص ٣١.

(٤) انظر، محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، سابق، ص ٢٤.

إلى روض الأدب يقرأ روائعه القديمة والحديثة، وأخذ يتطلع إلى آفاق جديدة غير هذه الآفاق الضيقة، التي تقتل في نفوس الشباب الطموح والتوثب.

إن أقسى ما أوحش زكي مبارك في الأزهر بعبده عن الأدب، مما أحت في نفسه ثورة نفسية، حاول التغلب عليها بحفظ الشعر، ونظمه سرًا، وأصبح ثائرًا على هذه الأوضاع التي لا تسير العصر.

يقول زكي مبارك معترفًا بهذه الحقيقة "وكننت وأنا طالب في الأزهر أحفظ الشعر سرًا وأنظمه سرًا؛ لأن الشعر كان ينافي الأزهرية الصحيحة، وكان الاهتمام به من سمات الغافلين عن حقائق الشروح والمتون<sup>(١)</sup>. كما يعترف بأن أيامه في الأزهر كانت سوداء بقوله: «هاتوا شبابي أيها الرؤساء، فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء»<sup>(٢)</sup>.

وقد شهدت حياة زكي مبارك في الحقبة الأزهرية تمزقًا عنيفًا في نفسه وعقله، فهو مذذب في انتمائه السياسي: ينضم إلى الحزب الوطني دون أن يندمج فيه اندماجًا كاملًا؛ لاعتداده بنفسه وحرصه على استقلال إرادته، ويظهر في الوقت نفسه تعاطفه مع حزب الوفد،

(١) فاضل خلف، زكي مبارك، الكويت، ط٢، ١٩٨٢م، ص١٨.

(٢) زكي مبارك، البائع، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، ط٢، ١٩٣٥م، ج١،

وهو يعترف بذلك بقوله: " فأنا عند أنصار الحزب الوطني شعبي  
بناصر الوفديين، وعند الوفديين خيالي يتشبث بالملحقات من سلع  
زيلع إلى بغيوب، وأنا بين المؤمنين ملحد، وبين الملحدين مؤمن، وأنا  
برُّ عند الفجار، وفاجر عند الأبرار، فأنا في كل بيئة أجنبيُّ وفي كل  
أرض غريب<sup>(١)</sup>.

لقد كانت حياة زكي مبارك في الأزهر إذن حياة قلق وحرمان،  
متردداً بين الأحزاب السياسية، متمرداً على الأزهر وعلومه، ولكنه  
كان يحمل كل تقدير في أعماقه لمشايخه، خاصة الشيخ (سيد المرصفي)،  
أحد رواد التجديد في الأزهر، والذي اعترف بفضله عليه بقوله: "   
عرفتُ بفضله أسرار اللغة العربية، واستطعت أن أرفع رأسي بين  
أساتذة الأدب وحَملة الأقلام"<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - في الجامعة:

اتجهت آمال زكي مبارك بعد إتمام دراسته الأزهرية إلى الجامعة  
المصرية الوليدة، وينتسب إليها رسمياً عام ١٩١٦<sup>(٣)</sup>. وفي الجامعة  
المصرية لم يترك زكي مبارك اندفاعه وجرأته وعنفه، ففي عام ١٩١٩

(١) زكي مبارك، ذكريات باريس، دار الهلال، ٢٠٠٢، ص ٢٥٩.

(٢) زكي مبارك، البدائع، سابق، ج١، ص ٦٦.

(٣) انظر، محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، سابق، ص ٢٦.

أثار تائراً رجال الدين بمحاضرة ألقاها عن شاعر الحب والغزل (عمر بن أبي ربيعة) اعترف فيها بأن "الحب نفحة من نفحات النبوة"<sup>(١)</sup>. "فهو جرم ولكنه لم يبال؟ ثم جمع هذه المحاضرات في كتاب بعنوان: "حب ابن أبي ربيعة وشعره، اعترف فيه صراحة بمذهبه الأدبي بقوله "الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد، حتى لا يفتر ويضوى تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين، ورعاية المتحجرين من دعاة الأخلاق... والأدب المستور يغشى بالحجب المحلية، التي لا ندري أتبقى سائغة مقبولة، أم يعدو عليها البدع المستطرف فيلقى بها في مهاوي الخمول"<sup>(٢)</sup>.

وبعد حصوله على شهادة الليسانس في العلوم الأدبية والفلسفة عام ١٩٢٣، تطلعت نفسه الوثابة إلى إحراز لقب علمي جديد، فتقدم للحصول على الدكتوراه بعد تخرجه مباشرة، وكان موضوع رسالته: الأخلاق عند الغزالي، تضمنت هجوماً عنيفاً على الإمام الغزالي؛ لموقفه السلبي أمام مشكلات عصره، واعتزاله الحياة السياسية أثناء الحروب الصليبية.

أما عن السبب في اختيار زكي مبارك لعنوان رسالته، فقد اعترف

---

(١) زكي مبارك، حب ابن أبي ربيعة وشعره، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط١، ١٩٩٩، مطبوع مع كتاب: الأسمار والأحاديث، ص١٨.  
(٢) السابق، المقدمة.

بأن الدافع الشديد وراء ذلك هو التشابه بينهما في كثير من الأمور، أفصح عنها بقوله: «على أن الغزالي- رحمه الله- عاني من حاسديه مثل ما عانيت، ولاقى ضعف ما لاقيت»<sup>(١)</sup>.

### ٣- في باريس:

بعد حصول زكي مبارك على الدكتوراه الأولى عام ١٩٢٤، تطلع للسفر إلى باريس؛ ليكمل دراسته بها تمامًا كأساتذته المصريين. وفي الحقيقة أن زكي مبارك كانت نفسه تهفو للدراسة في الخارج، وهذه العبارة التي نذكرها هنا دليل واضح على اعترافه بما نقول. فهو يقول عن موقفه من البعثات العلمية: «أما البعثات العلمية، ويلاه ماذا أقول؟ اللهم لا تمتني قبل أن أرى بعيني كيف يدرس العلم في الممالك، التي أصبح أهلها ساداه الأمم، وأساتذة الشعوب»<sup>(٢)</sup>. فهذا الفقرة الاعترافية تكشف عن تطلعه للسفر إلى الخارج، كما تكشف عن حسرته التي لازمته من جرّاء استبعاده من البعثات العلمية.

وقد بلغت هذه الرغبة أوجها في عام ١٩٢٧، فغادر مصر متجهًا إلى باريس؛ ليوصل دراسته العليا هناك على نفقته الخاصة في عصامية فريدة نادرة، وبمعاونة والده، الذي أعانه بالمال مكنه من الالتحاق بجامعة باريس نعلم هذه العصامية من اعترافه أثناء حديثه إلي طه

(١) زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار الشعب ١٩٧٠ (فاتحة الكتاب).

(٢) فاضل خلف، زكي مبارك، سابق، ص ٤٣.

حسين، حين رفض تجديد عقده في كلية الآداب «لقد ذهبت أنت فأتملت دراستك في باريس، وذهبت أنا، فأتملت دراستي في باريس، فهل تعلم ما الفرق بيني وبينك؟ اسمع أيها الصديق القديم البالي: ذهبت أنت على نفقة الجامعة، ومضيت أنا متوكلاً على الله، فأنفقت ما أدخرت من عرق الجبين»<sup>(١)</sup>. وقد أعد زكي مبارك نفسه لهذا اليوم منذ أن كان طالباً بالأزهر، فألم بالغة الفرنسية وأتقنها، وبدأ يتصل بالثقافة الفرنسية، فقرأ الكثير من أمهات الأدب الفرنسي قديمة وحديثة، ساعده على ذلك لسان من استطاع به أن يعرف دقائق اللغة الفرنسية.

يسجل (زكي مبارك) لحظة دخوله باريس في عبارة اعترافية صريحة تدل على مدى إتقانه للغة أهلها بقوله: "يوم دخلت باريس كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه إلا الأقلون"<sup>(٢)</sup>. وقد كانت حياة زكي مبارك في باريس قصة من أعظم قصص الطموح والعصامية الفريدة، سجل ذلك بقوله: "فقد كنت أشطر العام شطرين، أقضي شطره الأول في القاهرة، حيث أؤدي عملي، وأجني رزقي، وأقضي شطره الثاني في باريس، أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين، إلى أن ينفذ ما ادخرته أو يكاد، ثم صممتُ على أن أنقطع إلى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت، وكانت العاقبة أن أنعم عليّ

(١) زكي مبارك، البدايع، سابق، ج٢، ص ١٦٩.

(٢) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص ١٧.

الله - عز شأنه - بالنصر المبين<sup>(١)</sup>. وقد اندمج زكي مبارك في المجتمع الفرنسي اندماجاً كاملاً، فكان يقضي أوقات فراغه بين المسارح الأدبية، والمقاهي والأحياء الشعبية، وهذا ما ساعده في وصف باريس وأهلها، فوجد القراء في حديثه عنها اعترافات أديب خَبَر الحياة الباريسية؛ بفضل مرونة لسانه في اللغة الفرنسية، يقول زكي مبارك معترفاً بذلك: "عرفت باريس، وأهل باريس معرفة قلما تُقدَّر لإنسان سواي، ولم يكن ذلك فقط لأنني اتصلت بها نحو خمسة أعوام، وإنما كان ذلك لأنني وصلت إليها بعد يأس وشوق ... فكنت أنهب محاسنها في شَرِّهِ وَنَهَمٍ..."<sup>(٢)</sup>.

وما كان لزكي مبارك أن يصف الحياة الباريسية بهذا الوصف الدقيق إلا لكونه أديباً بارعاً له أسلوبه الخاص، الذي مزج فيه بين الأسلوب الصحفي - بعد أن عمل مراسلاً للبلاغ من باريس<sup>(٣)</sup> - والأسلوب الأدبي، بالإضافة إلى شاعريته وحسه المرهف، فجاءت مقالاته عن باريس صورة قلمية شائقة في تصوير أدبي فريد لا يتأتى إلا لمن طُبع على الأدب وفُطر على الشاعرية.

وقد أحب زكي مبارك باريس حباً يفوق الحد -على الرغم من

(١) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠١٠م، ج١، ص٣.

(٢) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص١٧.

(٣) الرسالة - ٢ يناير ١٩٣٩ - أغرب ما رأيت في حياتي.

ظروفه الصعبة- حتى إنه اندفع في رثائها بعد سقوطها في أثناء الحرب العالمية الثانية، وأبدى ألمه لسقوطها؛ لأنها - كما يعترف - مرجع روحه بعد القاهرة وبغداد وسنتريس<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من هذا الحب الجارف لباريس، فإن زكي مبارك كان يشعر بالاغتراب الروحي فيها، ولم يكن يعاني هذه الغربة الروحية بسبب خذلان في الحب أو إخفاق في تحقيق مجد أدبي، وإنما هي طبيعة متأصلة فيه فقد كان يشعر بغربة موحِشة في كل أرض هو فيها، وذلك ما اعترف به بقوله: "... فأنا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب"<sup>(٢)</sup>. وكما اعترف (زكي مبارك) صراحة بغربته في باريس نثرًا اعترف - كذلك - بغربته شعرًا، فكان يسهر على شاطئ نهر السين يناجيه، ويبثه أشجانه إلى ساعة متأخرة من الليل، ويسايره بنفس حيرى وقلب محزون ومن إحدى سهراته على شاطئ نهر السين، استلهم زكي مبارك قصيدته (غريب في باريس)، يقول فيها معترفًا بغربته وشقائه: (٣)

يا جنة الخلد كيف يشقى ... في ظلك النازح الغريب

(١) الرسالة - ٢٤ يونيو ١٩٤٠ - مدينة النور تعاني الخطوب.

(٢) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص ٢٥٩.

(٣) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، مكتبة مصر، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٣٠٥.

الناس في لهوهم نشاوى ... ودمعه دافق صبيب  
يقتات أشجانه وحيداً ... فلا صديق ولا قريب  
أقصى أمنية حين يمسى ... أن يهجع الخفق والوجيب<sup>(١)</sup>

والإحساس نفسه قد صاحبه في وطنه، وبعد عودته إليه ظافراً  
بأعلى الدرجات العلمية، نحس ذلك من اعترافه بقوله:

كنت في باريس أشكو غربتي ... كنت في بغداد أشكو زمني  
وأنا اليوم أعاني غربته ... مرة أشقى بها في وطني<sup>(١)</sup>

وقد اعترف زكي مبارك بصعوبة حياته في باريس، ووصفها  
بالسنين العجاف بقوله: "وكان أصعب تلك المتاعب هو هجرتي إلى  
باريس، فقد أقيمت فيها سنين كانت من أعجف السنين"<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من ظروفه القاسية، فإن زكي مبارك، استطاع أن  
ينجز رسالته (النثر الفني في القرن الرابع)، التي أثبت فيها بالأدلة  
والبراهين أن العرب عرفوا النثر الفني في جاهليتهم، وأن هذا النثر  
لم يكن وليد الأساليب الفارسية وربيبها<sup>(٣)</sup>.

(١) السابق، ص ٣٧٤.

(٢) فاضل خلف، زكي مبارك، سابق، ص ٤٤.

(٣) انظر، زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، سابق، ج١، ص ٣٥-٣٦.

ويعترف زكي مبارك بأن رسالته تلك جديدة لم يسبقه أحد إلى تأكيد ما فيها، فهو يقول موجهاً حديثه لطله حسين الذي تجاهل هذا الإنجاز، وقال عن كتاب زكي مبارك: " كتاب من الكتب أخرجته كاتب من الكُتَّاب"<sup>(١)</sup>، مُذَكِّراً إياه بقول (ماسينيون) يوم أدى زكي مبارك امتحان الدكتوراه: " إنني حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، وحين أقرأ أبحاث زكي مبارك أشعر بأني أواجه شخصية جديدة"<sup>(٢)</sup>. ولم يترك زكي مبارك في الرحلة الباريسية جرأته وصراحته مع أساتذته من المستشرقين، وعلى رأسهم (مرسيه)، وهو يعترف بذلك بقوله: "وما كدت أصل إلى باريس حتى هممت بمهاجمته، فنصحتني المسيو (ماسينيون) وأفهمني أنه رجل صعب المراس، وأن المستشرقين جميعاً يجلونه أعظم الإجلال، ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأي المسيو (ماسينيون) فابتدأت رسالتي، التي قدمتها للسوربون بفصلين في نقض آرائه من الأساس، فغضب وثار وصمم على حذف الفصلين؛ بحجه أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذي تنهض عليه نظريتي في نشأة النثر الفني. وكأنما عزَّ على

(١) الرسالة - ٢٦ مارس ١٩٣٤ - النثر الفني.

(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكي مبارك، إعداد وتقديم كريمة زكي مبارك،

الزهراء للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٢٦.

الرجل أن أهاجمه في عقر داره، فمضى يعاديني عداً خفياً، كانت له آثارٌ بشعة، لا أتذكرها إلا انتفضت رعباً من عجز الرجال عن ضبط النفس، وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف وقد قابلت خصومته بلدد أفسى وأعنف، ورأيت الحرص على آرائي أفضل من الحرص على رضاه، فأبقيت الفصلين اللذين أعضباه<sup>(١)</sup>. وأرى أن هذا النص الاعترافي الذي يتسم بالجرأة والصراحة، أضافه زكي مبارك بعد أن نال الدرجة العلمية، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، اعتراف زكي مبارك نفسه لوجود اختلاف بين الأصل الفرنسي والنسخة العربية لرسالته (النثر الفني في القرن الرابع)، فهو يقول: بين الأصل الفرنسي، وبين هذا الكتاب - يقصد الطبعة العربية - اختلاف قليل؛ ففي النسخة الفرنسية أشياء تكتب لأهل الغرب، ولا يحتاج إليها أهل الشرق، وفي هذه النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج إليها أهل الغرب، وينفع أهل الشرق، ويمكن القول بأن في النسخة العربية حرية لم تكن في النسخة الفرنسية؛ لأن الأصل الفرنسي كتب لأداء امتحان الدكتوراه في جامعة باريس، تحت إشراف أستاذين فيهما صرامة وشدة، وهما المسيو (مرسية) والمسيو (ديمومبين) فالأصل الفرنسي وُجّه وجهة العلم الصرف، أما هذا الكتاب فوضع لغرض التعليم والتثقيف<sup>(٢)</sup>.

(١) زكي مبارك، النثر الفني، سابق، ج١، ص ١٠-١١.

(٢) السابق، ج١، ص ١٣-١٤.

### ثالثاً: حياته العملية:

الأمر الجدير بالاحترام والتقدير هو أن (زكي مبارك) حين عاد إلى مصر من رحلته الباريسية، عاد وهو أشد إيماناً بالتراث الإسلامي وبالتقافة العربية، وهو يعترف بذلك صراحة في أول مقال كتبه بعد عودته، بيّن فيه مذهبه الأدبي، وقد جاء فيه: «إن صاحب هذا القلم سيقصر جهوده على ناحيتين اثنتين: الأولى الآداب العربية، والثانية حياة مصر الحاضرة في شؤونها الأدبية والاجتماعية. فَمَنْ كان يريد أن يرى غضبتي للحق، وعبادتي للجمال فليقرأ ما أكتب... ومن كان يريد أن يرى صورة مكرّرة لمن سبق من الكتاب والشعراء، فليعلم أن الخمول أحبُّ إليّ من أن أكون صدّي لأحد من القدماء أو المُحدّثين»<sup>(١)</sup>.

عمل زكي مبارك بعد عودته من باريس بالجامعة المصرية بعقدٍ يتجدد، وكان طه حسين وقتها مُبعداً عن الجامعة. والمعروف أن طه حسين كانت بينه وبين زكي مبارك عدة معارك أدبية؛ بسب نقد زكي مبارك لآراء طه حسين في كتابه النثر الفني، إضافة إلى غيرة طه حسين؛ لأن الدكتوراه التي حصل عليها من باريس كانت دكتوراه جامعية، أما دكتوراه زكي مبارك فكانت دكتوراه دولة، وفرق كبير بين الاثنتين في فرنسا<sup>(٢)</sup>. ولما عاد طه حسين إلى الجامعة، رفض

(١) البلاغ - ٢٤ يوليو ١٩٣١ - قلمي بين الصدا والصقال.

(٢) رءوف سلامة موسى، زكي مبارك، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ومكتبة المعارف

تجديد عقد زكي مبارك. وقد عرض الدكتور منصور فهمي على زكي مبارك أن يُصْفِي ما بينهما، ولكن زكي مبارك رفض، واعترف أنه لو عُرض عليه الأمر قبل ذلك لقبله، فهو يقول: "أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه حسين، ولكنني لا أفعل ذلك في هذه الأيام، ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين لقبلت. أما الآن فلا تسمح نفسي بمصافحة الدكتور طه وأنا أعلم أن لذلك دافعاً من الغرض<sup>(١)</sup>. فهذا النص الاعترافي يكشف ما فُطِرَتْ عليه نفس زكي مبارك من الإباء والاعتداد بالنفس.

وقد انبرى عدد من الأدباء للدفاع عن زكي مبارك، مُعترفين بعبقريته ونبوغه، منهم المازني<sup>(٢)</sup>، وسلامة موسى وغيرهما<sup>(٣)</sup>. أما زكي مبارك، فقد تلقى الحدث بشجاعة وثبات، نعلم ذلك من النص الاعترافي الآتي: «وأقسم ما فُكِّرْتُ في المنافع المادية حين توليت التدريس بالجامعة المصرية، وإنما كان همِّي أن أغرس الشوق إلى الدرس في نفوس تلاميذي، وقد ألقيت في صدورهم جذوة لن تخدم، ولن ينالها سكون، ولإن قضت الأغراض بأن أبعد عن الجامعة، فإن زملائي سيذكرون

بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٤٦.

(١) محمد محمود رضوان، عبقرى من سننتريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

٢٠٠٤م، ص ١٧٤.

(٢) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، ص ٢٩.

(٣) البلاغ - ٨ أغسطس ١٩٣٥ - زكي مبارك وإخراجه من الجامعة.

دائمًا أن تركت في أنفسهم آثارًا أطيب من المسك، وقد حزنوا لفراقى حزنًا أليماً، أما الأحقاد التي تتلظى في صدر طه حسين، فستقضي عليه شر قضاء، وستنكل به تنكيلاً، ولن تدوم له أيام الطغيان، ولن يبقى له فلان وفلان، والكرسي الذي يجلس عليه في الجامعة هو أقل ما أنتظره من الجزاء في المستقبل القريب... إن أعظم منصب في الجامعة المصرية لا يُنيلني من المجد مثل ما أنالني كتابُ النثر الفني، وستفنى أحجار الجامعة وتبيد ذكرياتها، ثم يبقى ذلك الكتاب - يقصد النثر الفني - على الزمان»<sup>(١)</sup>. هذا النص الاعترافي، يكشف فيه زكي مبارك عن دوره وتأثيره في طلابه، وزملائه في الجامعة، كما أن فيه إشادة بمؤلفاته وفي مقدمتها (النثر الفني) وذلك على طريقتة المحببة إلى نفسه في المبالغة والتحويل من شأنه وشأن مؤلفاته.

وعلى الرغم من أن طه حسين كان السبب الرئيس في إبعاد زكي مبارك عن الجامعة، فإن زكي مبارك كان يحترمه ويقدره، ويقف بجواره في كل أزمة يقع فيها، ويعترف بتفرد وقدراته، ذلك قوله يوم وفاة والدة طه حسين مُعزِّياً بأسلوبه الخاص: "والدكتور يتيم كالدرة اليتيمة، وهي اللؤلؤة التي تحتكرها صدفه... إن اليتيم معناه الحقيقي هو فقد الأب والأم، والمعنى المجازي هو التفرد، وقد تفرد

(١) زكي مبارك، البدائع، سابق، ج٢، ص ٢١٠.

الدكتور طه بطرائف في التفكير وفي التعبير، فهو يتيم<sup>(١)</sup>.  
في تلك الفترة، تقدم زكي مبارك إلى الجامعة للحصول على الدكتوراه  
الثالثة عن "التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق" عام ١٩٣٧، ظهر  
خلالها الفرق بين زكي مبارك صاحب (الأخلاق عند الغزالي)، وزكي  
مبارك صاحب (التصوف الأخلاقي)، ففي رسالته تلك نقض لدعائم  
رسالته الأولى، واعتراف -أيضاً- أن الأخلاق عند الغزالي لم تكن  
إلا دعوة صريحة للتشكيك في أصول الأخلاق الموروثة عند القدماء  
قال زكي مبارك: " وهذا كتاب - يقصد الأخلاق عند الغزالي - ألفته  
في أوقات كنت فيها ثائر القلب والعقل على فهم القدماء للأخلاق،  
وهي ثورة لم أنج من شرّها إلى اليوم، وقد أسايرها وتسايرني إلى آخر  
أيامي، وكيف يهدأ من يروعه أن يرى في رجال الدين من يعرفون  
خريطة الحياة الأخروية، ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية والواقع  
أن كتاب (الأخلاق عند الغزالي) لم يكن إلا دعوة صريحة إلى التشكيك  
في أصول الأخلاق الموروثة عند القدماء" ثم يوضح ما يريد بقوله: "وقد  
رجعت عن بعض الآراء في هذا الكتاب، حيث ألفت كتاب (التصوف  
الإسلامي) وبين الكتابين أعوام تنقل فيها عقلي من أفق إلى أفق"<sup>(٢)</sup>  
فهذا النص الاعترافي يكشف فيه زكي مبارك عن تغيير شخصيته بفعل

(١) البلاغ - ٨ أغسطس ١٩٥٠ - طه حسين اليتيم.

(٢) زكي مبارك، التصوف الإسلامي، دار الكتب، د.ت، المقدمة.

## الزمان والمكان.

وهذا ما أكده محمد جاد المولى الذي امتحن زكي مبارك في الرسالتين بقوله: " رأيت طالب الدكتوراه في سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه سنة ١٩٣٧م، كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا تهيب ولا تلطف، ولا أقول بلا أدب. أما الطالب الجديد، فكان آيةً من آيات الأدب والذوق، وكان مثلاً من أمثلة التواضع والاستحياء، يسمع السؤال بهدوء؛ فيجيب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتباس، فماذا صنعت الثلاثة عشر عاماً بالدكتور زكي مبارك؟ لقد تغير تغيراً تاماً، وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد الانقطاع، وكذلك يصنع العلم بأبنائه الأوفياء، فهو يجعلهم متواضعين مهذبين، لا يعرفون العنف ولا الغطرسة ولا الكبرياء"<sup>(١)</sup>. وبعد أن حصل زكي مبارك على الدكتوراه الثالثة، أطلق عليه محمد الأسمر لقب "الدكاترة زكي مبارك"<sup>(٢)</sup>.

هذا النبوغ العلمي، جعل الناس حوله قسمين: قسم يحبه ويقدره، مثل سلامة موسى والمازني وغيرهما، وقسم غاضب عليه، يترصده ويحاربه في رزقه؛ بسبب صراحته وجراته، كطه حسين، والنقراشي، والسهنوري"<sup>(٣)</sup>.

(١) محمد محمود رضوان، عبقرى من سننريس، سابق، ص ٥٠.

(٢) البلاغ - ٣١ يناير ١٩٥٠ - من أطلق كلمة الدكاترة على الدكاترة؟

(٣) انظر، زكي مبارك بقلم زكي مبارك، سابق، ص ١٧٠، ١٨٠.

ويرجع عدااء الفريق الثاني له، إلى صراحتته، وصدقه في الحق من ناحية، وإلى عدم وجود حزب يدافع عنه من ناحية أخرى، وهو ما اعترف به زكي مبارك بقوله: "والذين يحاربونني لم يطمعوا في محاربتني، إلا لظنهم أنني رجل أعزل لا أنحاز إلى حزب من الأحزاب، وليس لي في الحكومة عمٌ أو خال"<sup>(١)</sup>. لقد عاش زكي مبارك فترة طويلة بعيداً عن دنيا الوظيفة، ليس له ما يساعده على مغالبة مشاكل الحياة غير ما تدفعه له الصحف والمجلات من مكافأة.

كان زكي مبارك يرجو أن يتحسن وضعه في وزارة المعارف بعد أن صار الدكاترة، ولكن لم يتحقق شيء من ذلك، فعاش حياته يحسُّ بالغبْن والجحود، فيصرِّح معترفاً بهذه الحقيقة بقوله: «وحالي في مصر حال عجيب، فقد عشت دهري مظلوماً، وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت تلك الدكتوراه - يقصد الدكتوراه الثالثة - من أنياب الأسود"<sup>(٢)</sup>.

وفي خِصْمِ هذا الجو من الجحود والتربُّص الذي أحاط بزكي مبارك، جاء تقدير (العراق واختيارها له؛ للتدريس بدار المعلمين العليا ببغداد في عام ١٩٣٧، والطريف في الأمر أن (زكي مبارك) قبل هذه الدعوة لا بوصفه محاضراً، وإنما بوصفه طبيباً. وهل يشك القارئ

(١) البلاغ - ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ - طه حسين بين البغي والعقوق.

(٢) زكي مبارك، ليلي المريضة في العراق، دار الهلال، ٢٠٠٢، ص ٢٣١.

لحظة في أن (زكي مبارك) طبيباً، إذا قرأ هذه العبارات الاعترافية: "ولا أستطيع أن أصف كيف كانت الأيام التي سبقت رحيلي إلى العراق، فقد قضيتها في درس الطب النفساني والروحاني"<sup>(١)</sup>. ويؤكد على هذه الوظيفة بقوله معترفاً بممارسته الطب لا الأدب: "تذكرت العيادة الجميلة التي أقمته في شارع فؤاد بعد أن خربت عيادتي بشارع المدابع بسبب السيدة (ن)، وكانت عيادتي بشارع فؤاد تبشر بمستقبل رائع، فقد كانت مجهزة على أحداث طراز. ثم يعترف بأن الأدب هو الذي ضيعة كطبيب فيقول: ألا فليعلم الجمهور الذي خلفنا بعد مئات السنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا يعيشون في مصر، وهم: محبوب ثابت، وأحمد زكي أبو شادي، وزكي مبارك ... أما زكي مبارك فقد أضاعه الأدب جملة واحدة، وإنني لا أخشى ألا يستمع إليه أحد إن وصف لمريض شربة زيت؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية الآداب، فقد ضاع في الكليتين، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب، وعند كلية الطب رجل أديب"<sup>(٢)</sup>.

ويتعجب زكي مبارك معترفاً بما صار إليه حاله بعد السفر إلى العراق فيقول: "أليس من العجيب أن أهاجر إلى بغداد وأنا طبيب،

(١) السابق، ص ١٧.

(٢) السابق، ص ٤٦-٤٧.

فأرجع وأنا أديب؟<sup>(١)</sup>.

وهذا كلام لطيف ترتاح إليه النفس، ولو قال به غير زكي مبارك لكان كلاماً يدعو إلى السخرية والاستهزاء، ولكنه نال الاستحسان والقبول؛ لأنه صدر من أديب امتلك روح الفكاهة والمرح، وصاحب طريقة فريدة في الأدب الحديث.

وقد قابل أبناء العراق انتداب زكي مبارك للتدريس في بغداد بالرضا والسرور، ولذا لم يكذب يصل بغداد، حتى أقام له الأدباء العراقيون حفل تكريم، يكرمون الأدب العربي في شخصيته الفذة<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان لهذا التكريم أثرٌ عظيم في نفسية زكي مبارك، وهو الذي لم يجد سوى الجحود والغبن في وطنه ظهر ذلك في حصاده الأدب الوفير، الذي تمثل في إصداره أربعة كتب هي: ليلى المريضة في العراق، وعبقرية الشريف الرضي، وملامح المجتمع العراقي، ووحي بغداد. بالإضافة إلى محصول شعري، تمثل في عدد من القصائد الشعرية التي كتبها زكي مبارك من وحي بغداد، يعترف فيها بفضل العراق عليه:<sup>(٣)</sup>

(١) السابق، ص ٨.

(٢) انظر، عبدالرازق الهلالي، زكي مبارك في العراق، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١،

١٩٦٩م، ص ٥٩-٧١.

(٣) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، ص ٢٧٥.

سيسأل قسوم عن زكي مبارك ... وجسمي مدفون بصحراء صمّاء  
فإن سألواعنيّ ففي مصر مرقدى ... وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي

والى جانب اعتراف زكي مبارك بأثر العراق عليه أدبيّاً، هناك التأثير النفسي الذي كان يفتقده في مصر، فقد هدأت أعصابه بعيداً عن معاركه الأدبية في القاهرة، يعترف بذلك التأثير النفسي بقوله: "لقد راعني أن أجد في دار المعلمين العالية شباناً نجباء، يستمعون إلى دروسي، وكأنهم صورة من صور العطف والذكاء، وأعظم نعمة في الدنيا أن يقف موقف المعلم لشباب مهذبين أذكيا، وأنا واثق أن لن يعاديني أحد من هؤلاء التلاميذ، ومطمئن إلى أنني أعيش بينهم عيش الغريب بعد أن طالت شكواى في القاهرة وسنتريس"<sup>(١)</sup>.

هذا النص الاعترافي، يكشف أن العام الذي قضاه زكي مبارك في العراق، كان بمثابة الراحة النفسية، التي كان يبحث عنها بعيداً عن صراعاته الأدبية في مصر، والجحود الذي يحيطه فيها، مما كان له أكبر الأثر في أن يفضي إلى قلمه؛ فيبدع أربعة كتب قيّمة، بالإضافة إلى عدد كبير من القصائد الشعرية التي حواها ديوانه (ألحان الخلود). فلم يكن بمستغرب - إذن - أن يعترف بأنه ابن بغداد فكان

(١) عبدالرازق الهلالي، زكي مبارك في العراق، سابق، ص ٧٤.

يقول: " إنه ابن بغداد، قبل أن يكون ابناً للقاهرة أو باريس"<sup>(١)</sup>.  
وعندما عاد زكي مبارك من رحلته العملية في بغداد عام ١٩٣٨،  
ازداد إحساسه بالغربة الروحية والوحشة؛ بسبب الجحود الذي  
ما زال ينتظره في مصر، فشرع يناجي الصحراء والليل بقوله: " أيتها  
الصحراء، إن حالك مثل حالي، موات في موات ... وقد تمرح فوق ثراك  
الميت هوام وحشرات، وفوق ثرى قلبي الميت تمرح هوام وحشرات،  
هي السخرية من الناس، واليأس من صلاح القلوب، وجمال الوجود...  
أيها الليل، قد اقترب صباحك، فمتى يقترب صباحي؟ لك خلاص من  
ظلماتك، فأين الخلاص من ظلماتي؟ ستمضي لشأنك وتتركني يا ليل...  
أيها الليل، لقد عرفت قسوتك في بلاد كثيرة من الشرق والغرب، وما  
كنت أعرف أنك أقسى ما تكون في داري وفي وطني"<sup>(٢)</sup>.

هذا الحديث أو المناجاة الاعترافية، يدل على مدى ما عاناه (زكي  
مبارك) من الغربة حتى في وطنه بعد عودته من العراق، فقد بقي  
كما هو واستأنف عمله مفتشاً بوزارة المعارف، يستطيع الكاتب عن  
الشخصيات أن يتخيل لها أعمالاً غير التي تعملها في الواقع، ولكن من  
الصعب أن نتخيل لزكي مبارك مهنة غير مهنة الأدب، فقد كانت  
صلته به نذر وقسمة، فهو يعترف بأنه كان يميل - في صغره - إلى

(١) رءوف سلامة موسى، زكي مبارك، سابق، ص ٩٥.

(٢) الرسالة - ١٤ أغسطس ١٩٣٨ - هذه داري وهذا وطني ولكن أين أحبائي!؟

الاطلاع على الأدب العربي خاصة الشعر، الذي فُتِنَ به، فهو يعترف بأنه «كان مفتوناً منذ الطفولة بقراءة الشعر، وأنه كان يشتري كل كتاب يلح فيه بيتاً واحداً»<sup>(١)</sup>.

وكان يعلم أن الأدب صناعة لا تُجدي على صاحبها شيئاً في معيشته، فهو يعترف بأنه "لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب؛ لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه بلا أسف سيموت فقيراً؛ لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي. والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء، وأنا في طليعة أولئك الشهداء"<sup>(٢)</sup>. لقد حُيِّلَ إلى زكي مبارك أنه قادر على أن يعطي الأدب حقه، وأن يعطي مطالب المعيشة حقها، فلم يلبث غير قليل حتى يتبين له أنه للأدب وحده، والدلائل على صحة هذه الفكرة كثيرة، منها خروجه من وزارة المعارف ثلاث مرات بلا مكافأة، ولا معاش"<sup>(٣)</sup>. ومنها اعتذاره عن عدم مواصلة العمل في العراق؛ لرغبته في طبع كتاب (التصوف الإسلامي) في القاهرة؛ خدمةً للأدب"<sup>(٤)</sup>. لقد احتمل (زكي مبارك) مصاعب كثيرة من أجل الوصول إلى الهدف الذي كان يطمح إليه، وهو أن يكون في طليعة الكتاب العرب في العصر الحديث - وهو ما تحقق - إلى جانب أنه كان

(١) زكي مبارك مقدمة ديوان زكي مبارك.

(٢) الرسالة - ١٨ أبريل ١٩٣٨ - عبقرية الشريف الرضي.

(٣) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص ١٧٠.

(٤) زكي مبارك، ليلي المريضة في العراق، سابق، ص ٢٣٥، ٣٦٢.

يهدف إلى بلوغ منصب العميد لإحدى الكليات المصرية، وهو ما أخفق في تحقيقه؛ لأن المسؤولين ضنوا عليه بما يريد، وحالوا بينه وبين ما يطمح إليه، فعَلَّ (طه حسين) فضله من الجامعة؛ بأنه كان يجامل بعض الطلاب - كفضاد سراج الدين - مقابل بعض الهدايا<sup>(١)</sup>.

الأمر المثير للإعجاب أن زكي مبارك حين وُجِّه إليه هذا الاتهام اعترف به بقوله: "نعم... جاملتهم؛ لأنهم كانوا ينفقون جهدهم، ومالهم، وحياتهم، وأوقاتهم في الخدمات الوطنية ضد الاستعمار"<sup>(٢)</sup>. إن هذا النص الاعترافي يدل على مدى وطنية زكي مبارك، فلم يقف شعوره الوطني حتى في هذا الموقف، الذي قد يُعرض سمعته العلمية والعملية للتجريح.

هذا الموقف يتفق مع موقف طلعت حرب حينما أعطى فرياً من عملاء بنك مصر سلفاً كبيرة بلا ضمانات، ولما سألوه عن السبب قال: "لقد كنت مستعداً أن أقدم لهم هذه السلفيات بلا أى ضمان؛ فأولئك هم الذين أنفقوا ثرواتهم الضخمة في الحركة الوطنية" ويعقب الأستاذ حافظ محمود على هذين الموقفين بقوله: "ولإن كان هذا الموقف من طلعت حرب، وزكي مبارك لم يعجب المتزمتين، الذين كانوا يريدون

(١) محمد الدسوقي، طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، دار المعارف، سلسلة اقرأ، د.ت، ص ٤٨-٤٩.

(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكي مبارك، سابق، ص ١٧.

شيئاً آخر، فإنه موقف يُذكر لكليهما في لوحة الشرف الوطني<sup>(١)</sup>. تلك كانت حالة (زكي مبارك) مع الوظيفة، التي ضاق بها وضافت به، فاعتزل التدريس والتفتيش ولجأ إلى الأدب والصحافة. وقد اعترف (زكي مبارك) - بطريقته الخاصة- أن هذا ما كان يسعى إليه ويخطط له فيقول: "أين مَنْ يصدق أن الدكتور زكي مبارك موظف بعقد في دولة فيها ألف صديق من الكبراء، تعجبوا يا ناس ما طاب لكم التعجب، أما أنا فلن أتعجب؛ لأن هذا ما أردته لنفسى"<sup>(٢)</sup>.

وقد كان زكي مبارك شعلة نشاط في عملة الصحفي، فلم يترك مجلة، أو صحيفة مصرية إلا كتب لها، وكانت جريدة (البلاغ) الأوفر حظاً من مقالاته، وخاصة مقاله الشهير (الحديث نو شجون) الذي كتبه زكي مبارك من ملاحظاته اليومية الكثيرة.

أما المجلات فكانت (الرسالة) الأعلى نصيباً من مقالاته، حيث تجلى قلمه على صفحاتها إلى أطف حدود التجلي.

ومع كثرة مقالات (زكي مبارك) الصحفية، وتنوعها، فإنه لم يسخر قلمه لخدمة أى حزب من الأحزاب فعاش بروحه اللطيف وقلمه النظيف، وهو يعترف بذلك مفتخراً بنفسه: "إن الذخيرة

(١) حافظ محمود، زكي مبارك وطنياً، الذكرى المثوية لميلاد الدكتور زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩١م، ص ١٨١.  
(٢) البلاغ - ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ - إلى معالي وزير المعارف.

الباقية في حياتي هي أننى أعيش بروحى وقلمي... إنه روح لطيف  
وقلم نظيف... فما استطاعت حكومة مصرية، أو غير مصرية أن  
تستأجر قلمي<sup>(١)</sup>. وإن دلَّ هذا النص الاعترافي على شيء فإنما يدل على  
أن الأدب استأثر بزكي مبارك واستولى عليه، مما جعله يفلت من قيود  
الوظائف والحزبية، ليظل قلمه أبيضاً صريحاً، يبغض النفاق والمداورة.  
رابعاً: وطنيته:

لم يكن زكي مبارك بمعزل عما يدور في وطنه من أحداث وثورات  
ضد الاحتلال، فشارك في ثورة ١٩١٩، واكتوى بنارها، وذاق آلام  
التشرد والاعتقال. واعترف بأن ما يقوم به هو خدمة وطنية وليس  
من أجل حزب الوفد الذي حاول رجاله اجتذابه إليهم بالمال؛ فاعتذر  
غاضباً «أنا أخدم وطني بعقيدة صحيحة ولا أقبل درهماً في خدمة  
وطني»<sup>(٢)</sup>.

وقد كان لنشاط زكي مبارك، وإثارته للجماهير بخطبه دور كبير  
في استمرار الثورة ضد الإنجليز الذين سعوا إلى اعتقاله، واقتدوه إلى  
معتقل سيدي بشر بالإسكندرية.

وقد تركت أيام الاعتقال في نفسية (زكي مبارك) آثاراً مريرة،  
اعترف بها بقوله: "إن أيام الاعتقال أورثتني أحزاناً كثيرة، وهي

(١) وردت هذه العبارة على غلاف كتاب (زكي مبارك بقلم زكي مبارك).

(٢) محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، سابق، ص ٢٩.

أحزان لا تزال تعتصر قلبي، ولكنني استفدت من أيام الاعتقال، فقد عرفت بها معنى الاغتراب في الحياة، وهو معنى جميل<sup>(١)</sup>.

### خامساً: ملامح خلقية وسمات نفسية:

يقصد بهذه الصفات ما يشكل تضاريس شخصية زكي مبارك، بحيث تظهر ملامحها في أدبه عامة، والاعتراف منه بصفة خاصة. وقد كفانا زكي مبارك مشقة وصفه الجسدي والنفسي؛ لأن شخصيته كانت واضحة لمن يريد أن يعرف أبعادها ولامحها الأساسية، ولا يستطيع أن يحدثنا عنها أصدق من (زكي مبارك) نفسه فما أكثر ما تكلم عن نفسه معترفاً في كتبه، ومقالاته، وأشعاره وما أكثرها!

### أ - الملامح الخلقية:

كان زكي مبارك متوسط القامة، قوى البنية، غزير الشعر، متقوس الأنف، جهير الصوت وسيم الوجه، أرزق العينين رغم أنه كان يكرر أنه أخضر العينين؛ نكايّة في المحتل الإنجليزي المشهور بزرقّة العينين<sup>(٢)</sup>. غليظ الشفتين، ورث عن أبيه الجد والتقوى والصلابة، وورث عن أمه - ذات الأصول اللبنانية - الوداعة وطيبة القلب،

(١) محمد محمود رضوان، عبثري من سننريس، سابق، ص ٣٩.

(٢) زكي مبارك، ديوان أحلام الحب، جمع وتحقيق: كريمة زكي مبارك، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩م، ص ٨٨ الحاشية.

فاجتمعت فيه ملامح الفلاح المصري والجمال اللبناني.

وقد اعترف زكي مبارك بأثر الوراثة على ملامحه الجسمية بقوله: "وأسارع فأقرر أن جدي لأمي، وهو الحاج إسماعيل فارس من أبناء لبنان، وهذا ظاهر في وجهي وعيونني<sup>(١)</sup>. ويعترف زكي مبارك بأثر التكوين الجسماني على شخصيته وأدبه، بما يتضمن اعترافاً ضمنياً برضائه عنها فيرى نفسه "أذكى الناس وأقوى الناس، ولم يخطر بباله أن الله أنشأ إنساناً أصح منه عقلاً أو أقوى جسمًا، ولولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين<sup>(٢)</sup>. وهذا يفسر لنا السر وراء تسميته بالملاكم الأدبي<sup>(٣)</sup> وبفتوة المنوفية<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة لملامحة العقلية، فقد كان متوقد الزكاء، صافي الذهن، قوي الذاكرة، فهو يعترف بذلك بقوله: " حقيقة لم ألتفت إليها من قبل هي عودة ذاكرتي، فقد قضيت ثلاثة أيام بلياليها بدون نوم، فأعدت على نفسي أكثر أجزاء القرآن الكريم، وثلاثة أرباع ألفية ابن مالك، وثلاثة آخماس أشعار لافونتين، ولامرتين، وهو جو، ودى

(١) البلاغ - ٢٧ مايو ١٩٤٧ - موشحات ابن نباتة المصري.

(٢) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، ص ٥٤.

(٣) احمد حسن الزياتي، الرسالة - ٢٩ يونيو ١٩٤٢ - الصفاء بين الأدباء.

(٤) أمين الخولي، الرسالة - ١٩ أكتوبر ١٩٣٩ - أسماء وأحاديث في منزل الدكتور

طه حسين.

موسيه ، وحفظت ثلاثين ألف بيت من الشعر العربي <sup>(١)</sup> ولكن ذاكرته ضعيفة فيما يتصل بالأرقام والأعلام، وهي قوية فيما يتصل بالحوادث والمعاني يعترف بذلك بقوله: " فأنا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التدقيق كأني شهدتها بالأمس ولكني أنسى اليوم الذي وقعت فيه ، وقد أنسى العام والعهد <sup>(٢)</sup> .

### ب - الملامح النفسية:

الكلام عن ملامح زكي مبارك النفسية سيكون مقصوراً على بعضها، التي لها علاقة بأدب الاعتراف عنده، وليس من المفيد أن نسرد قائمة بهذه الملامح، وإنما المهم هو استشفاف ما وراءها من شخصية زكي مبارك.

### (١) الحزن والاعتراب:

كان زكي مبارك في أغلب حالاته قلقاً يحس الاعتراب. وقد اعترف بذلك في أكثر من موضع كما في قوله: «.. فأنا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب <sup>(٣)</sup> .

وكان أقرب إلى الحزن منه إلى الفرح والابتهاج، كثير الشكوى

(١) محمد محمود رضوان، عبقرى من سننيريس، سابق، ص ٦٠.

(٢) الرسالة - ٤ يناير ١٩٤٣ - خواطر ليلة الميلاد.

(٣) زكي مبارك، ذكريات باريس، سابق، ص ٢٥٩.

والتبرم؛ لشدة إحساسه بالظلم، يعترف بذلك في مقدمة كتابه: "الأسماء والأحاديث" بقوله موجهاً حديثاً إلى القارئ: "إليك أيها القارئ أنفض أحزاني وأشجاني، ولو شئت لدلتك على فيالق من المؤلفين في المشرق والمغرب شكوا دهرهم كما شكوت، وتوجعوا من زمانهم كما توجعت، وعانوا من غدر الأصدقاء والزلاء بعض الذي أعاني، فأنا لم أبتكر شكوى الزمان، وإن كنت أشقى المكتوبين بغدر الزمان<sup>(١)</sup>. هذا الحزن يسود معظم أشعاره، وكتابات الوجدانية، عبارة عن قصائد طويله من الحزن والتوجع، فهو يقول عن ديوانه (ألحان الخلود): «إن الحزن يتموج ملتهباً فوق صفحات هذا الديوان<sup>(٢)</sup>. لهذا الحزن أصول ترجع إلى أيام الطفولة عندما توفيت تلك الروح التي خفق لها قلبه أول خفقة، والتي قال فيها أول قصيدة، وسكب عليها أول دمة، فتراه يهديها ديوانه الأول، بهذا الاعتراف المبتوث بعبارات الحزن: " إلى تلك الفتاة التي خفق لها القلب أول خفقة، والتي قلت فيها أول قصيدة، وسكبت عليها أول دمة، إلى تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس، إلى بقاياك في التراب يا فاتحة الأمانى، وخاتمة الآمال، إليك يا كل ما كنت أملك في مطلع

(١) زكي مبارك، الأسماء والأحاديث، مطبوع مع كتاب "حب بن أبي ربيعة وشعره"، سابق، المقدمة.

(٢) زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، سابق، المقدمة.

الصبا وفجر الشباب، أقدم هذا الديوان<sup>(١)</sup>.

تلك الفتاة التي كان زكي مبارك يرى وجهها في وجوه أخواتها من بنات حواء وإن تعددت الأسماء، ولعل هذا يفسر لنا سر إفراط (زكي مبارك) في التعبير عن عواطفه تجاه المرأة، وظهر في أشعاره ومؤلفاته العاطفية أنه صاحب صولات وجولات غرامية بداية من حبه الأول في سنتريس، وحتى ليلى المريضة في العراق.

وقد أخذت الأيام تزيد من حزن زكي مبارك، وأصبح قلبه يتلقى سهام الحياة وأحزانها بلا هوادة، مما كان له عظيم الأثر في رهافة حسه ورقة مشاعره، وهذا يفسر لنا طغيان الصبغة الوجدانية في آثاره الأدبية، والتي ترجع إلى شاعريته الأصيلة، وطبيعته العاطفية، بالإضافة إلى إصابته بالثكل مرات عدة، فهو يقول معترفاً: "وأنا أيضاً شبت قبل الأوان بأعوام طوال، وكان ذلك؛ لأن الله امتحنني بالشكل في مطلع شبابي، حملت على كتفي ستة من أبنائي وبناتي إلى القبر ومنهم طفل دفنته في حديقة البيت؛ لأنه مات في ساعة الميلاد"<sup>(٢)</sup>.

وعندما بلغ زكي مبارك ما بلغ من مكانة علمية وأدبية، رأى المجتمع غير المجتمع الذي رسم له صورة فاضلة في مخيلته. كان شاعراً مرهف الحس، فظن الناس أجمعين في مثل إحساسه، ولكنه ودَّ القسوة والغلظة فتحول إلى إعصار يقول زكي مبارك: "لقد ابتدأت

(١) زكي مبارك، ديوان زكي مبارك، الإهداء.

(٢) الرسالة - ٢١ يونيو ١٩٤١ - الحديث ذو شجون.

حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال، ولو خلاني الناس وشأني؛  
لعثت بلبلاً وديعاً لا يسمعون منه غير أنغام الحنين، ولكن لؤم اللئام  
حوّلني إلى إعصار عاصف، يحق ما يصادف من اليابس والأخضر  
والطير والحيوان”<sup>(١)</sup>.

كان زكي مبارك يظن أن الخلق الذي شب عليه في الريف، هو الخلق  
السائد في المجتمع ولكن الشواهد كذبتة، وأخلفت ظنه بالناس، ولذا  
حمل على المجتمع وأخلاقه حملات ضارية.

وزاد من أحزانه تلك المتناقضات التي اصطدم بها فأثرت في نفسه،  
واصطدم بسببها مع كثير من معاصرية متهمًا إياهم بالجحود والعقوق؛  
لأنهم وقفوا أمام طموحة فضاق بهذا اللون من الحياة وأخذ في الشكوى  
والأنين من حياته التي لم ينتفع منها بشيء: « لم أنتفع بشيء فحتى  
هذه السنة - يقصد عام ١٩٥٠- وأنا أحرر في الجرائد والمجلات  
وأملأ الدنيا ضجيجاً وأنشئ المدارس أدبية وفلسفية، ثم أنظم القصائد  
الجياد، ثم أراني متخلفاً في حياتي الرسمية”<sup>(٢)</sup>.

كل هذه الأسباب كونت أحزاناً متراكمة في نفس زكي مبارك  
فجعلته يرسل تلك الشكوى المؤثرة المبتوثة في كثير من كتاباته، وصار

(١) زكي مبارك ونقد الشعر، إعداد وتقديم: كريمة زكي مبارك، الزهراء للإعلام  
العربي، القاهرة، ط٨، ١٩٨٧م، ص١٩.  
(٢) السابق، ص١١-١٢.

للحزن عنده فلسفة تكمن في عبارة واحدة (الحزن قوة) وقد اعترف زكي مبارك بهذه الفلسفة بقوله: "والحزن ليس مصدر ضعف كما يتوهم الناس، وإنما هو مصدر قوة؛ لأنه دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد من الناس ومن الأشياء، والحزن مقصور على الحيوانات الرقيقة وأرقى أنواع الحيوان هو الإنسان"<sup>(١)</sup>.

وفي الواقع أن أحزان زكي مبارك تفيض من أعماق نفسه وتصدر عن آلام المجتمع وآماله فهو حزن خلاق، ألهمه أروع أشعاره ومقالاته وجعله من كُتَّاب الطليعة.

## ٢ - الصراحة والصدق:

ومن ملامح شخصية زكي مبارك النفسية أنه رجل ابتلاه الله بالصراحة والصدق فلم يكن يعرف المداراة والمجاملة على حساب ما يرى أنه الصواب، فهو لا يدين بمذهب النفعية في شيء فعادى في سبيل ذلك رجالاً لهم نفوذ وسلطان، وعن ذلك المنحى يقول زكي مبارك معترفاً: «... وعاديت من أجل الحق رجالاً يضرون وينفعون، ويقدمون ويؤخرون فكان اعتصامي بحبل الحق هو أقوى ما تدرّعت به؛ لالتقاء مكاييد الناس ومكاره الزمان»<sup>(٢)</sup>.

(١) فاضل خلف، زكي مبارك، سابق، ص ١٤٥.

(٢) زكي مبارك، الأسماء والأحاديث (المقدمة).

ويعترف (زكي مبارك) بأن قول الحق لم يدع له صديقاً، ولكنه غير نادم " وكنت أعرف ما أنا صائر إليه؛ فبقول الحق سأفقد أصدقائي جميعاً، ولكنني غير نادم على مصاحبة الصدق الذي كدّر حياتي، فالنفع الذي يصل عن طريق الكذب، نفع سخيف. إن الصدق هو شعاري في حياتي، وأنا أوصى به قرائي"<sup>(١)</sup>.

وقد قادته صراحته وصدقة إلى الاصطدام بمن حوله، كما قادته صراحته - أيضاً - إلى الحدة في النقد، فكان أقرب تصور له قول أحمد أمين عنه إنه «رجل يمسك بيسراه كتاباً قيماً فيه علم غزير وأدب وفير، وبيده اليمنى عصاً أشهرها، ثم هو يطلع الناس على ما في كتابه من طرف فمن همّ أن يفتح فاه بنقد، أو مخالفة قرعة بما في يميناه... فلا ينقده نقد عالم لعالم، ولكن نقد مصارع لعالم"<sup>(٢)</sup>. لهذا خصم زكي مبارك، وخسر الكثيرين من أصدقائه ومن ذوى الشأن.

### ٣ - الاضطراب والخلل:

والملاحظ على نفسية زكي مبارك أنها كانت على استعداد للخلل؛ نتيجة لتعدد جوانب نفسيته، فهو حائر في تحديد حقيقة نفسه، وهو ما اعترف به بقوله: «أنا متهم بالعقل والجنون، فمن وصفني بالعقل، فهو متلطف، ومن وصفني بالجنون، فهو مسرف؛ لأنني في

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، سابق، ص ١١٤.

(٢) أحمد أمين، الرسالة - ٢ أبريل ١٩٣٤ - كتاب النثر الفني في القرن الرابع.

حقيقة أمرى إنسان يعيش في ثورة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل، وهي حالة تجعل أمرى وسطاً بين العقل والجنون<sup>(١)</sup>.

وقد اعترف زكي مبارك بهذا الاضطراب في نفسيته، التي جمعت التوازن والخلل فيقول: " .. وإنما الواقع أني درست نفسي فرأيتها صالحة للارتياض بأداب الناس، ومازلت أعجب كيف استطعت أن أعيش في دنيا لا صديق فيها ولا حبيب، ولعل السر في صلاحيتي للعيش أني أصادف أقواماً رماهم الدهر بما رمانى، فائتلفنا كما يأتلف الوحوش، ومع هذا لا أنكر أني معرّض للتخلق بأخلاق مختلفة، في بعضها قوة، وفي بعضها ضعف، غير أني مع ذلك أقرر أن هذا الاختلاف هو أيضاً صورة من نفسي"<sup>(٢)</sup>. وقد يكون هذا الخلل النفسي ناتجاً عن إحساسه المستمر بالاعتراب في حياته.

## ١ - الاعتراف بالخطأ والرجوع عن آرائه:

كانت أعظم سمة نفسية تحلى بها زكي مبارك، هي اعترافه بما في مؤلفاته من أخطاء وهفوات، هذه السمة جعلته يسبق النقاد، ومن ذلك اعترافه بوجود أخطاء عدة في كتابه (حب ابن أبي ربيعة، وشعره) كالاستطراد، وتقديم صورة نفسية عن الشاعر لا يقتضيها موضوع البحث، ويختم زكي مبارك كلمته الاعترافية عن الكتاب

(١) الرسالة - ٢ يناير ١٩٣٩ - أغرب ما رأيت في حياتي.

(٢) الهلال - أول ديسمبر ١٩٣٨ - أنا نفسي.

بقوله: «ولا أستطيع أن أعد ما في كتاب: حب ابن أبي ربيعة وشعره من الهفوات»<sup>(١)</sup>.

وعن سفره الثمين (النثر الفني في القرن الرابع) يعترف زكي مبارك بأخطاءه في الكتاب، ذكر منها غلبه النزعه الوجدانية، وقلة الشواهد، واختلاف منهج العرض والتأليف، بالإضافة إلى غلبة الاستطراد<sup>(٢)</sup>.

وبالنسبة لدواوينه الشعرية فهو يعترف بوجود بعض الضعف في أبياته الشعرية فيقول عن ديوانه (ألحان الخلود): "قد يرى القارئ بيتاً ضعيفاً في قصيدة قوية، فيسأل عن السر في الإبقاء على هذا البيت الضعيف. وجوابي: إن ذلك البيت قد يكمل الصورة"<sup>(٣)</sup>.

وكما اعتذر زكي مبارك للقارئ عما في كتبه وأشعاره من أخطاء وضعف، فكذلك رجع في بعض آرائه النقدية، إذ تبين له خطأ أحكامه، فهو يعترف بأنه أخطأ في مهاجمته للغزالي؛ بسبب موقفة السلبى أثناء الحرب الدائرة في بلاد الإسلام، ويرجع عن تلك الآراء بقوله: "ثم مرّت أعوم راضى فيها الدهر بعد الجموح، فعرفت أن الغزالي لم يكن من الجبناء وإنما كان من الحكماء"<sup>(٤)</sup>.

(١) مقدمة كتاب: حب ابن أبي ربيعة وشعره.

(٢) النثر الفني، ج ١، ص ٥-٦.

(٣) خاتمة ديوان (ألحان الخلود).

(٤) الرسالة - ٢٩ يولييه ١٩٤٠ - إليك أعتذر أيها الغزالي.

هذه الحادثة تبين طبيعة زكي مبارك الصريحة مع نفسه، التي دخل معها معركة تختلف عن كل معاركه الأدبية الأخرى، وأى معركة أشد على النفس من كبح جماحها وإجبارها على الاعتراف بخطئها وهي في قمة زهوها بما حققته من إنجازات علمية!

وكان يعتقد أن (إسماعيل صبرى) هو أول شاعر سنّ مذاهب القول في وصف آثار الفراعين<sup>(١)</sup>، ولكنه رجع عن رأيه عندما اطلع على قصيدة (كبار الحوادث في وادى النيل) لشوقي، فعلم أن (شوقي) سبق (إسماعيل صبرى) إلى التغنى بتلك الآثار<sup>(٢)</sup>.

وكذلك الحال بالنسبة (للبوصيري) فبعد أن لامه على أنه جرى في تشبيهه مجرى المحاكاة والتقليد في مطلع القصيدة، بذكر (كاظمة وإضم) من الأماكن غير المصرية، رأى أن "ذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها يناهز مصريته، وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بلبسيس أو فاقوس... ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى تلك الأماكن لصلتها بمدينة الرسول، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة وتقليداً، ولو كان صادق اللوعة، لشبّب بغادة مصرية، وحن إلى مغنى من مغاني النيل"<sup>(٣)</sup>.

(١) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٢٦٤.

(٢) زكي مبارك، أحمد شوقي، ١٩٨٨م، ص٣٨-٣٩.

(٣) الموازنة بين الشعراء، ص١٦٨-١٦٩.

ثم رجح زكي مبارك عن حكمه السابق واعترف بخطأ رأيه بقوله: "والنسيب في البردة يتصل بالتشوق إلى المعالم العربية، وكنت لمتُّ البوصيري على هذا في كتاب (الموازنة بين الشعراء) ثم تبينت أنه اختار تلك المواطن؛ لصلتها بمولد الرسول، وخاصة إذا لاحظنا أن النسيب لم يقصد لذاته حتى يتحدث الشاعر عن هواه في بلبس وفاقوس، وإنما هو نسيب وقع في موقع التمهيد لقصيدة دينية، ولولا حرص الشاعر على متابعة القدماء في افتتاح القصائد بالنسيب لما كان للتغزل في مثل هذه القصيدة مكان"<sup>(١)</sup>.

فهذه النصوص الاعترافية يتضح منها أن "المفكر، أو المبدع، أو الناقد، يتخلى عن آرائه وأفكاره التي يؤمن بها تجاه القضايا الفكرية، أو الإبداعية، أو النقدية في فترة ما من حياته؛ لأن آراءه وأفكاره أصبحت لاتتلاءم ومفاهيم وقيم واقعه الجديد، وربما قد كشف الواقع الجديد خطأها وزيفها"<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - الثناء والاعتداد بالنفس:

أما قضية القضايا المتعلقة بسماته النفسية، فهي إحساسه، الأكبر بالذات، وإضافة هالة من التعظيم على (الأنا) فكان زكي مبارك كثير

(١) زكي مبارك، المناخ النبوية في الأدب العربي، مطابع الشعب، ١٩٧١م، ص ٢٠٣.  
(٢) عبدالناصر هلال، لويس عوض الرديكالي الذي باح بسره للنار، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٢م، ص ٢١٩.

الاعتداد بنفسه و بملكاته، تيّاهًا إلى الفخر، وقد وصل في ذلك إلى درجة عالية من الإحساس بالذات - لا نقول بالانرجسية - هذا الاستعلاء ينفّس في معظم ماكتبه زكي مبارك حتى أصبح عيبًا أخذه عليه معاصروه. ومعنى ذلك أن أظهرَ خصائص أدب (زكي مبارك) هو قوة الذاتية التي عرفها بقولة: "هي أن تكون أنت أنت فلا تكون صورة من غيرك"<sup>(١)</sup>.

والأمثلة على اعتداد زكي مبارك بنفسه كثيرة وإن كان يلطف استعلاءه روح خفيف ودعابة مستملحة مع صراحة وبداعة ريفية<sup>(٢)</sup>. والأمر المثير للدهشة والتأمل أن زكي مبارك لم يرَ في ثنائه على نفسه أى عيب، وإنما هو بعض حقوقه التي ضن بها معاصروه عليه، بل يجعل الحديث عن نفسه من خصائص أدبه فهو يقول: "تصوير هموم النفس، وما يحيط بها من مخاوف وآمال، هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء. فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي؟ وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسي؟

وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلا أحاديث نفسية؟ والثناء على النفس يضابق الناس حين يكون ثناء بالحق، وإلا فمن

(١) زكي مبارك، بقلم زكي مبارك، ص ١٣٠.

(٢) عباس خضر - الرسالة - ١١ فبراير ١٩٥٢ - الأدب والفن في أسبوع.

الذي استطاع أن يكذبني حين أثنيت على نفسي... إن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود .. فأين من يملك من الصدق بعض الذي أملك؟<sup>(١)</sup>.

ولا يتحرج زكي مبارك في الاعتراف بإحساسه بذاته، والإعلان عن ذلك فهو يقول موجهاً حديثه إلى طه حسين: "أنا أعرف ما تكره مني . أنت تكره مني الكبرياء، وكيف أتواضع وقد أعانني الله على بناء نفسي؟"<sup>(٢)</sup>.

ويضيق بنا المقام إذا عددنا المواضع التي أثنى فيها زكي مبارك على نفسه سواء في كتبه الأدبية والنقدية، أم في دواوينه الشعرية . ففي مجال تنظيره الأدبي، نراه شديد الزهو بأنه "أول من كشف النقاب عن نشأة النثر الفني في اللغة العربية... وهل يمكن الشك في أن مؤلف هذا الكتاب يقصد النثر الفني، هو أول من رجّع الصور الفنية في نثر كُتاب الصنعة والزخرف إلى أصول عربية صميمة؟ ... وهل يتردد أريب في الاعتراف بأن الفصول التي كتبتها عن نشأة المقامات، وعن الأخبار والأقاصيص، فصول مبتكرة كُتبت لأول مرة في اللغة العربية"<sup>(٣)</sup>.

ويعترف في مقدمة كتابه (المدائح النبوية) بأنه "أول من يرسم

(١) الحديث ذو شجون، سابق، ص ٤٤٧.

(٢) الرسالة - ١٢ فبراير ١٩٤٠ - إلى الدكتور طه حسين.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع، ج ١، ص ٤.

خصائص المدائح النبوية في الأدب العربي، وهو موضوع كان يجب أن  
تعيّن رسومُه وحدودُه منذ أزمان<sup>(١)</sup>.

ولا يتورع زكي مبارك أن يضيء هالة من التهويل والمبالغة تأكيداً  
لإحساسه بموهبته، وافتقاده تأكيد الغير لها، وتعويضاً عن قصور  
النقاد في التنبيه إليها والإشادة بها فيقول عن كتابه النثر الفني،  
معترفاً بفضلته على الأدباء "ولن يستطيع أى مؤلف آخر - مهما اعتزَّ  
بِقوتِه وتعامي عن جهود من سبقوه - أن ينسى أنني رفعت من طريقه  
ألوفاً من العقبات والأشواك"<sup>(٢)</sup>.

ويكرر زكي مبارك اعترافه بذاته في أغلب مؤلفاته فيقول في خاتمة  
كتابه (العشاق الثلاثة): "ولن يستطيع قلم أن يقول في هؤلاء العشاق  
كلما يفوق ما جاد به قلّمي، ولو صار الورق أرخص من التراب لما جاز  
عندي أن يضاف حرف إلى هذا الكتاب. تحدث عن هؤلاء العشاق فلان  
وفلان وفلان، وستذهب أحاديثهم أدراج الرياح، ولا يبقى غير كتابي؛  
لأنني قبسته من نار قلبي ونور وجداني"<sup>(٣)</sup>.

كذلك كان حاله حين سخر من ناقدية وتوَج نفسه على كُتاب  
عصره؛ لما أعياه العثور على من يمنحه لقباً يرضاه، وهو حين خلع

(١) المدائح النبوية، ص ٨.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع، ج ١، ص ٣-٤.

(٣) زكي مبارك، العشاق الثلاثة، دار المعارف، سلسلة اقرأ، د.ت، ص ١٥٧، ويقصد  
بالعشاق الثلاثة: جميل بن معمر، كثير بن عبد الرحمن، والعباس بن الأحنف.

على نفسه خلع المبالغة والاعتداد بالنفس لدرجة الغرور .  
يقول زكي مبارك مُقرِّطاً نفسه ومعتزفاً بموهبته ناقدًا: « الشريف  
الرَضِيّ في كتابي أشعر من المتبني في أي كتاب، ولن يكون المتبني أشعر  
من الشريف، إلا يوم أُؤلف عنه كتابًا مثل هذا الكتاب»<sup>(١)</sup>. فعبقرية  
الشعراء لا تقوم إلا على يديه، وويل للشعراء ممن لم يتناولهم قلمه،  
وفي ذلك اعتراف شديد بالنفس، ولذا لم يكن بمستغرب أن يُنصّب زكي  
مبارك نفسه على نقاد عصره وأن يجعل نقده هو النقد الحق والصواب،  
يعترف بذلك بقوله: "في يقيني أنني سأحول النقد الأدبي في مصر  
تحولاً جدياً، وسأعلم القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين  
قبل أن يغمروا بتلمس النزوات الصغيرة التي يلقي بها الكتاب هنا  
وهناك، وهم يتجادلون ويتحاورون؟"<sup>(٢)</sup>.

وإذا ما تأملنا نتاجه الشعري نجد أن هذه النزعة واضحة جلية  
في دواوينه، فيعترف بأنه ملك الشعراء، وأشعر من البحتری فهو  
يقول: " قال الدكتور محمد صبري إن ديباجتي الشعرية ديباجة  
بحترية وهي كلمة يريد بها الثناء، ولكنني عند نفسي أشعر من  
البحتری، وأشعر من جميع الشعراء ؛ لأنني ملك الشعراء"<sup>(٣)</sup>.

(١) زكي مبارك، عبقرية الشريف الرضي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ج١،

ص٥.

(٢) زكي مبارك ونقد الشعر، سابق، ص٣٧.

(٣) ديوان: ألحان الخلود، ص١٨.

وهو يخرج على الناس بالديوان الشعري يؤلفه، ويحذرهم من نقده، يعترف بذلك صراحة دون مداراة فيقول عن ديوانه: أَلحان الخلود: "لن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفاً في نقد هذا الديوان ؛ فما عرفت اللغة العربية في تاريخها القديم، وتاريخها الحديث قلمًا أمضى من قلمي، أو بيانًا أبلغ من بياني"<sup>(١)</sup>.

وما من أحد يمكن أن يعترف لنفسه بكل هذا التفوق، ولكن زكي مبارك اعترف بذلك صراحة بقوله: "وأنا أعتقد بلا زهو، ولا كبرياء أني وصلت باللغة العربية إلى ما كانت تطمح إليه من البيان . أنا أعتقد - بلا استطالة ولا تزيُّد- أني خلقت عذوبة الأسلوب في اللغة العربية، وقد صار البيان عندي طبيعة أصيلة لا يعتربها تكلف، ولا افتعال .. إن الذي يقرأ مؤلفاتي، ومقالاتي يشعر بأنه يرى الحياة وجهًا لوجه"<sup>(٢)</sup>.

فما تفسير هذه النزعة النفسية ؟ لقد تم التوصل إلى أن هذه النزعة الذاتية لم تكن نابعة في أدب زكي مبارك عن أنانية أو غرور، وإنما هي نابعة عن ثقة واعتقاد بأن أبسط حقوقه أن يتحدث عن نفسه، مادام مُطارداً من الجميع، وأن يقدم أعماله بنفسه مادام النقاد قد نكصوا، وتقاعدوا عن ذلك.

(١) السابق، ص ١٤.

(٢) الأسمار والأحاديث (المقدمة).

ولعل زكي مبارك- صاحب الرؤية المستقبلية- كان يتوجس ألا ينال الثناء المقدر له بعد موته مادام لم ينله في حياته؛ فبادر إلى تتويج نفسه بنفسه والإشادة بمواهبها قبل أن يفعل غيره ذلك، معترفاً بذلك بقوله: "أخشى ألا أظفر بكلمة رثاء يوم يُشيعني الناس إلى قبري، فذاكرة بني آدم ضعيفة جداً، لا تذكر من يشقى لإسعاده ويفنى لخلودها، والناس لا يذكرون إلا مَنْ يؤذيهم، أما الذي يخدمهم ويتعب من أجلهم فلا يذكره أحدٌ منهم بالخير إلا وفي كلامه نبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف"<sup>(١)</sup>.

وقد كفانا (زكي مبارك) مؤنة البحث عن الأسباب التي كانت وراء تلك النزعة، بقولة مخاطباً المازني، الذي عدّ ذلك عيباً من عيوب زكي مبارك: "هل حال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه النزعة النفسية؟ هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذي أقع فيه كارهاً غير طائع؟ لو أنك فعلت لعرفت أنني لا أتكبر إلا متحدياً، والتحدى نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجحود والعقوق. لقد ينست من إنصاف الناس فكيف لا أنصف نفسي؟ وأنا بعد هذا أسأل مَنْ يؤذيهم ثنائياً على نفسي، أسألهم: متى يجاهدون في الأدب كما أجاهد؟ ومتى يعانون في سبيل الأدب ما أعاني؟ أين الزميل الذي يقول إنه

(١) زكي مبارك، حافظ إبراهيم، إعداد وتقديم، كريمة زكي مبارك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م، ص ١٤.

أحرص مني على الوفاء بحقوق القلم البليغ ؟  
وأين الشخص الذي يملك الزعم بأنه ينفعني ؟ ومن هو المخلوق  
الذي يتوهم أن له ديناً في عنقي ؟ ومن هو الروح الطاهر الذي يطمح في  
السيطرة على شيطانية روحي ؟... كانت الغاية عندي أن أقيم على أن  
لوطني وجودية تحمية من الأباطيل، وكانت حياتي شاهداً على صحة  
ما ابتغيت، فما استطاعت قوة أن تهدمني، ولا جاز في وهم مخلوق أن  
يراني من أتباعه ولو كان أعظم العظماء .. لن أرتاب لحظة في أنني أول  
كاتب، وأول مؤلف، وأول شاعر في هذا الزمان... هو ذلك لأنني أسهر  
الليل في مسامرة قلبي، ولأنني أؤمن بأن الاعتماد على الماضي هو ثروة  
السفهاء من الوارثين”<sup>(١)</sup>.

هذا النص الاعترافي يكشف فيه زكي مبارك عن السبب وراء تفشي  
هذه النزعة النفسية في أدبه، فهو لم يمدح نفسه طائفاً بل كارهاً؛  
نتيجة الظلم والعقوق الذي لاقاه من المجتمع الذي لم يقدر مواهبه  
الكثيرة، فجعل من حديثه عن نفسه مهرباً ومتنفساً لما يعانيه من  
غدر مجتمعه وزمانه.

وكثير ما كان زكي مبارك يردد مثل هذا القول، ويعترف به  
صراحة دون مواربة؛ لأنه شاعر، والشعراء يصفون على أنفسهم هالة

(١) الحديث ذو شجون، ص ٤٤٨-٤٥١.

من هالات العظمة والشهرة، فهو يقول: "يُقال إنني أثنى على نفسي. هذا صحيح ؛ فالدكتور زكي مبارك الذي أكرم جميع الشعراء لم يثن عليه أحد من الشعراء"<sup>(١)</sup>.

وفي شعر (زكي مبارك) تعليل لهذه النزعة، وأن مَرَدَّها إلى شيء واحد: هو ما كان يعانيه من ظلم، وإغماط لحقه في أن يعتلي أعلى المناصب، وأن يتلقى الإشادة عن مؤلفاته وعلمه<sup>(٢)</sup>. وكان يجيب على السبب وراء تلك النزعة، بترديد قول ابن الرومي:<sup>(٣)</sup>

وعزيز علىّ مدحي لنفسي .... غير أنني جشمته للدلالة  
هو عيب يكاد يسقط فيه .... كلُّ حرٍّ يريد يظهر حاله

وبذلك يمكن القول، إن زكي مبارك قد اعترف بثنائه على نفسه، وإنه لم يثن عليها إلا صادقاً عندما لم يجد من ينصفه، وذلك على نحو يتراوح بين الشعر والنثر، وبأسلوب فني رائع ترتاح له النفس، وليس أدل على ذلك من قول دريني خشبة: " .. هذا إلى ما تفيض به مؤلفاته من روح الاعتداد بالنفس والزهو، الذي أعجب به من زكي

(١) زكي مبارك، ديوان: أطياف الخيال، دار مصر للطباعة، د.ت، ص ٥٧.

(٢) ديوان: ألحان الخلود، ص ٣٧٤، وديوان: قصائد لها تاريخ، ص ٩١.

(٣) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص ١٦٩.

مبارك ولا أعيبه عليه ... والله ما أظرف ما يجيب به حين يسأل عن هذا فيقول: زمان لا يريد أن ينصفني، فلماذا لا أنتصف منه لنفسي؟<sup>(١)</sup> وفي الحقيقة أن ما قيل عن ذاتية زكي مبارك واعتداده بنفسه، إنما هي أمور ترجع إلى شعوره بالظلم، وفي الوقت نفسه، يؤكد هذا الشعور، الذي يصل إلى حدّ العقدة، أن لصاحبه رغبة كامنة في الدفاع عن نفسه إزاء كل ما يواجهه من عوامل الإحباط، وإحساسه الدائم بالاضطهاد، وهذا ما كشف عنه نثره الكثير، كما كشفت عنه أشعاره، فهو يقول:

تغربت في الدنيا فلا مصر داري ... ولا أنا أوفي الحياة إلى ركن  
فتى عبقرى الروح لا الناس أهله ... وليس له عند الكريهة من  
خدن<sup>(٢)</sup>

إن شعور زكي مبارك بالغبن دفعه دفعاً إلى الثناء على نفسه،  
وحصد الألقاب، فهو يقول:

« نظمت قصائد كثيرة في تصوير الوجد المشبوب بصورة قضت بأن  
تخلع علىّ (مجلة الحوادث) لقب ملك الشعراء، ومن قبل خلعت علىّ  
مجلة (الصباح) لقب أمير البيان<sup>(٣)</sup>. »

(١) محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، ص ١٣٧.

(٢) ديوان: ألحان الخلود، ص ١٨٥.

(٣) السابق، ص ٦.

إن زكي مبارك كان - فيما أعتقد - على حق في هذا الاعتداد بالنفس، فقد قضى حياته الأدبية الطويلة عاكفاً على القلم والقرطاس، وألّف مئات الألوف من الصفحات في عشرات من المجلدات والكتب، وظفر بثلاث درجات علمية، ولم يشفع له ذلك كله، فظلم في حياته. هذا الظلم امتد ليشمل جوانب كثيرة من حياة زكي مبارك، بحيث يمكننا أن نقول: إن حياته كانت صورة واضحة للحظ العاثر، فقد عاش في وحدة كاملة لا رفيق له ولا أنيس، وهو ما يفسر لنا اعتماده بشكل دائم على عملية الاستبطان النفسي؛ ليهرب من واقعة المير إلى مراجعة خرائط حياته التي "يتراءى في بعضها الشيخ زكي مبارك بعمامته البيضاء، وفي بعضها الآخر يتراءى زكي أفندي مبارك بطربوشه الأحمر، وفي جوانب أخرى يتراءى المسيو زكي مبارك في قبعته الرمادية، ومن العجيب أن هؤلاء الأشخاص، الذين يختلفون في ملابسهم وأزيائهم يلتقون عند نقطة واحدة، هي الحظ العاثر والفؤاد الخافق"<sup>(١)</sup>.

### خامساً: شاعريته

كانت إحدى التُّهم الموجهة إلى زكي مبارك، هي إكثاره من أحاديث الحب والعواطف، حتى إن بعض النقاد أطلق عليه (زعيم الأدب

(١) ذكريات باريس، ص ٢٦٨.

الوجداني) <sup>(١)</sup> ويعترف زكي مبارك بأنه اتخذ من كتابة الوجدانيات مذهباً له بقوله: "إن حديثي عن الحب صار مذهباً أدبياً أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء، وأنا أريد خلق جوٍّ من البشاشة أَدفع به ظلمات الزمان"<sup>(٢)</sup>.

ويرجع السبب في اتجاه زكي مبارك إلى الوجدانيات في المقام الأول إلى شاعريته.

وأشعار زكي مبارك- في الغالب- نظمها في فن واحد هو، فن الغزل والتشبيب، ولا غرابة في ذلك، فقد فطر على الحب، واستهواه الجمال، وهو في مطلع الشباب في مسقط رأسه (سنتريس).

وقد اعترف زكي مبارك باقتصار معظم أشعاره على هذا اللون من الشعر بقوله: "إن أشعاري تكاد تكون مقصورة على فن واحد، هو فن الغزل والتشبيب، ولعل هذا يرجع إلى طبيعة ذاتية، قضت بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال"<sup>(٣)</sup>.

في المقابل، كان عزوفه عن شعر المديح شهماً واستكباراً، ويعترف بالسبب في هذا العزوف بقوله: "ليس في أشعاري مديحٌ، فما أعرف

(١) عبد الله خورشيد، مجلة الثقافة - ١٦ يناير ١٩٧٥ - زكي مبارك زعيم الأدب الوجداني.

(٢) الرسالة - ١٩ فبراير ١٩٤٠ - تشريح عاطفة الحب.

(٣) ديوان: ألحان الخلود، ص٦.

رجلاً أعظم مني لأنظم فيه قصائد المديح<sup>(١)</sup>.

ولم يتفرغ زكي مبارك لفن الشعر وحده، ويعترف أنه لو تفرغ له - على حد قوله - "لفاق الأولين والآخرين ... وحسبه أنه يحفظ ثلاثين ألفاً من الأشعار، كفيلة بأن تجري لسانه بالشعر المتصل"<sup>(٢)</sup>. ولكن زكي مبارك، وهو الباحث الأديب لا يجد وقتاً للشعر، بل ينظر من قمة مواهبه المتعددة، فيرى الشعر أصغر من أن يحتوي موهبته.

ولا يتورع (زكي مبارك) عن الاعتراف بذلك، فهو يقدم نفسه بنفسه مستغنياً عن مقدمه، فيقول وكأنه شخص آخر يقدم الشاعر وديوانه:

«ولا ندهش من هذا الأمل الجارف، فصاحبنا مفتون بنفسه أشد الفتون، وكان نتيجة هذا الفتون أن رأى الشعر أصغر من أن تقف عنده همته الطاغية»<sup>(٣)</sup>.

ورأى أن هذه الأقوال لا تخرج عن دائرة التبرير؛ لتخلفه في ميدان الشعر، وتفسير جنوحه إلى ألوان أدبية أخرى يرى فيها نفسه، بالإضافة إلى أنها تناقض ادعاءه - السابق - بأنه ملك الشعراء. وشعر زكي مبارك - كما أشرنا - في معظمه شعر عاطفي، صادر عن عاشق

(١) السابق، الصفحة نفسها.

(٢) ديوان زكي مبارك (المقدمة).

(٣) السابق، المقدمة.

قوي العاطفة، مشتعل الإحساس، صادق الوجدان، تائر بطبيعته ألم يقل معترفاً: «إن الهدوء يزعجني، والجو الذي يثير الشاعرية في صدري هو الجو الحاد بالبرد أو القيقظ، أما الجوال معتدل فهو موسم خمود، ولعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتَّسم أدبي بوسم العنف والجموح»<sup>(١)</sup>.

والطريف أن زكي مبارك يعترف بأن عنفه في جموحه الشعري، يرجع إلى مولده في شهر أغسطس "لأنه شهر طغيان النيل، ولأنه أعنف أيام القيقظ، وكذلك يسميه أهل لبنان: آب اللهاب"<sup>(٢)</sup>.

### سادساً: أسلوبه

اتخذ زكي مبارك في كتاباته أسلوباً مُميّزاً، أحبه القراء، ورأوا فيه فتحاً جديداً وأسلوباً مبتكراً لم يألفوه من قبل، خاصة مقالاته (الحديث ذو شجون) التي كانت أشبه بفن الاعترافات أو اليومييات التي يكتبها كُتَّابُ الصحف المعاصرون.

ويعترف زكي مبارك بأن أسلوبه في الكتابة يصدر عن الفطرة الممزوجة بالثورة والافتحام، فهو يقول: "وما أعرف بالضبط ماهي خصائص أسلوبِي؛ لأنني أصدر فيه عن السجية والطبع"<sup>(٣)</sup>.

وقد أكد زكي مبارك هذه الخصيصة في كتاباته بقوله: "والحق أنني

(١) ديوان: ألحان الخلود، ص ٣٩.

(٢) السابق، ص ١٥٥-١٥٦.

(٣) الأسمار والأحاديث (المقدمة).

لا أستطيع أن أكتب البحث الواحد مرتين؛ لأنني أنتزع أدبي من ثورة العقل والقلب، وقد درست نفسي مرات كثيرة، فرأيت السهم الأول أنفذ في جميع الأحيان، ورأيت معاودة الصقل والتهديب ضرباً من الزخرف لا تسيغه طبيعة فطرت على الثورة والافتحام<sup>(١)</sup>.

وقد اعترف زكي مبارك بأنه اكتسب هذا الأسلوب من مصادر عدة، أولها حفظه للقرآن الكريم، فهو يقول: "سألني جماعة من أصدقائي عن طريقتي في الإنشاء، فقلت: أنا متأثر بأسلوب زكي مبارك.. ولفائدة قرآني أقول: أنا متأثر بأساليب كثيرة، أولها أسلوب القرآن المجيد"<sup>(٢)</sup>.

والثاني، حفظه لآلاف الأبيات من الشعر العربي - كما سبق وأشرنا - فقد جعله ذلك متمكناً من صوغ التعبيرات الجميلة التي لا تخونه أثناء الكتابة. هذا الكم الهائل من الشعر، جعل لأسلوبه هذه الدباجة المشرقة التي لا غموض فيها ولا تكلف.

الثالث، إطلاعه على الأدب العربي القديم، فهو يعترف بأنه تأثر في مطلع حياته الأدبية بأسلوب بديع الزمان الهمذاني، والخوارزمي، وابن العميد وغيرهم، وكان يحفظ الكثير مما في (زهر الآداب) و(الأمالي) و(العقد الفريد)، فأعجب بكتاب الصنعة وتأثر بهم<sup>(٣)</sup>.

(١) المذائج النبوية، ص ٨.

(٢) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص ١١١.

(٣) البنائع، ج ١ ص ١٢٧ وما بعدها.

الرابع، اعترافه من الآداب الغربية خاصة الفرنسية، فهو يعترف بتأثره في أسلوبه بالأدباء الفرنسيين مثل (فنون) و(أناطول فرانس)، فهو يقول: "وأنا في الأدب الفرنسي متأثر بالكاتب (فنون) مُبدع رواية تلماك... ثم يجيء طفلاً يؤثر على أسلوبِي، وهو (أناطول فرانس) إنه يتكلم كما يتكلم الأطفال، أعتقد أن هذا الرجل أعظم طفل أنجبته الأمة الفرنسية"<sup>(١)</sup>.

وقد أدى هذا الامتزاج بين آداب اللغتين: العربية والفرنسية، أن أضحي زكي مبارك من المدرسة التي تُحكّم العقل، وتفرض على الكاتب أن يدقق في اختيار ألفاظه التي يعتمد عليها. ومن الواضح أن زكي مبارك قد تخلّص من الأساليب المسجوعة أو الموزونة، وآثر أن يجعل كلامه مرسلًا خاليًا من الصنعة.

هذه المصادر الأربع، تجمعت في أسلوب زكي مبارك، ومنحته هذا الابتكار، الذي لم يألفه القراء من قبل "وجعلته في مقدمة مَنْ نجحوا في خلق عذوبة الأسلوب في اللغة العربية، وأضاف إلى قاموس الوجدان أشكالاً رائعة من التعبيرات والمعاني الجديدة الرقيقة، فالرقة عنده طبيعة، وأسلوبه يتسم ببراعة التعبير ورشاقة البيان"<sup>(٢)</sup>.

وقد أقام زكي مبارك أسلوبه على أصليين هما السر في نجاحه:

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص ١١٢.

(٢) محمد محمود رضوان، عبثوي من سنن تريس، سابق، ص ١٥٢.

الصدق والوضوح، وهو ما اعترف به بقوله: "أما الصدق، فالناس جميعاً يشهدون أثره فيما نشرت من الرسائل والقصائد ... وأما الوضوح، فهو عندي ميزة أصيلة، ولا أكاد أخط سطرًا إلا بعد أن تتمثل الفكرة أمامي مثل بياض الصبح المشرق، وما عرضت لمعنى دقيق إلا كشفتها، ورفعت عنه أستار الغموض، وتركته يصفاح القارئ وكأنه من البديهيات.

ويضاف إلى هاتين الميزتين ميزة ثالثة؛ هي الحيوية العنيفة في نقد الآراء، فأنا في كل ما أكتب وما أقول مُحارب لا يرى الحياة إلا في حومة القتال، وليس الأدب عندي مزاجًا أتلهي به في الأسفار والأحاديث، وإنما هو عراك في ميادين الفكر والعقل والخيال"<sup>(١)</sup>.

ولعل هذه الخصائص المميزة لأسلوب زكي مبارك، قد استهوت القراء، ولعل هذا يفسر اتساع توزيع (البلاغ) في الأيام التي تنشر فيها مقال زكي مبارك (الحديث ذو شجون).

وبعد ... فهذه هي أهم ملامح أدب الاعتراف عند زكي مبارك، حاولنا أن نركز فيها على ما يخدم هدفنا، من تقديم صورة لشخصية زكي مبارك، تتضح معالمها في أدبه عامة، واعترافاته خاصة، من خلال مقالاته، وآرائه المبتوثة بين سطور كتاباته، التي نفض فيها زكي مبارك نفسه، وصوّر ملامح شخصيته أصدق تصوير، وحلّل ونقد

(١) البدائع (المقدمة).

آثاره الأدبية قبل الغير، معترفاً بما فيها من إيجابيات وسلبيات، وكان في ذلك أميناً وأصيلاً غير متكلف، ليصدق فيه قول محمود تيمور: "إن وقفة واحدة مع زكي مبارك خليفة أن تظهرك على كل شيء فيه، ما علن منه وما استتر .. لقد كان ينفذ نفسه نفصاً، ويكشف عنها كشفاً، فيركز لك خصائص شخصيته، ويقدمها في سهولة ويسر، دون أن يرهقك في تعرف هذه الشخصية واستبطان أسرارها، والتفطن إلى ما فيها من طرافة أو شذوذ"<sup>(١)</sup>

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية: انظر، أحمد فريد، مواقف إيمانية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٩م ص ٢٦٣-٣٠٧.

١. البلاغ - ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ - إلى معالي وزير المعارف.
٢. البلاغ - ٢٧ مايو ١٩٤٧ - موشحات ابن نباتة المصري.
٣. البلاغ - ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ - طه حسين بين البغي والعقوق.
٤. البلاغ - ٢٤ يوليو ١٩٣١ - قلبي بين الصدا والصمت.
٥. البلاغ - ١٩ أغسطس ١٩٤٧ - الحديث ذو شجون.
٦. الثقافة، عبد الله خورشيد - ١٦ يناير ١٩٧٥ - زكي مبارك زعيم الأدب الوجداني.
٧. الرسالة - ٢ يناير ١٩٣٩ - أغرب ما رأيتُ في حياتي.
٨. الرسالة - ٢١ يونيو ١٩٤١ - الحديث ذو شجون.
٩. الرسالة - ١٨ أبريل ١٩٣٨ - عبقريّة الشريف الرضّي.
١٠. الرسالة - ١٤ أغسطس ١٩٣٨ - هذه داري وهذا وطني ولكن أين أحبائي!؟
١١. الرسالة، احمد حسن الزياتي - ٢٩ يونيو ١٩٤٢ - الصفاء بين الأدياء.
١٢. الرسالة - أمين الخولي، ١٩ أكتوبر ١٩٣٩ - أسماء وأحاديث في منزل الدكتور طه حسين. الكاتب - بدر الدين، نوفمبر ١٩ الهلال، زكي مبارك، ليلى المريضة في العراق
١٣. الهلال، زكي مبارك، ذكريات باريس، ٢٠٠٢م

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: الكتب والمؤلفات العامة:

- ١ - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبدالله الكبير وآخرين، دار المعارف، د.ت
- ٢ - أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
- ٣ - أبو حاتم محمد بن حبان البستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م.
- ٤ - إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م
- ٥ - حافظ محمود، زكي مبارك وطنياً، الذكرى الثوبية لميلاد الدكتور زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩١م.
- ٦ - رعوف سلامة موسى، زكي مبارك، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ومكتبة المعارف ببيروت، ٢٠٠٢م.

- ٧- زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد وتقديم، كريمة زكي مبارك، مطبعة الفجالة الجديدة، ١٩٨٨م
- ٨- زكي مبارك، أحمد شوقي، ١٩٨٨م بدون.
- ٩- زكي مبارك، الأسماء والأحاديث، مطبوع مع كتاب «حب بن أبي ربيعة وشعره» بدون.
- ١٠- زكي مبارك، البدائع، ج٢. بدون.
- ١١- زكي مبارك، الحديث ذو شجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م
- ١٢- زكي مبارك، العشاق الثلاثة، دار المعارف، سلسلة اقرأ، د.ت
- ١٣- زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٣
- ١٤- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج١
- ١٥- زكي مبارك، حب ابن أبي ربيعة وشعره، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط١، ١٩٩٩م
- ١٦- زكي مبارك، ديوان أحلام الحب، جمع وتحقيق: كريمة زكي مبارك، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م
- ١٧- زكي مبارك، ديوان: أطياف الخيال، دار مصر للطباعة، د.ت.
- ١٨- زكي مبارك، ديوان: ألحان الخلود، مكتبة مصر، ط٢، ١٩٨٨م
- ١٩- زكي مبارك، ديوان: قصائد لها تاريخ، دار الشعب، القاهرة، ١٩٨٧م

- ٢٠ - زكي مبارك، عبقرية الشريف الرضي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ج١، ١٩٨٨م
- ٢١ - عبدالرازق الهلالي، زكي مبارك في العراق، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.
- ٢٢ - عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، ١٩٩٢م.
- ٢٣ - عبداللطيف عبدالحليم، المازني شاعرًا، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٩٤
- ٢٤ - عبدالناصر هلال، لويس عوض الرديكالي الذي باح بسرّه للنار، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠.
- ٢٥ - علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ
- ٢٦ - فخر الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م
- ٢٧ - كريمة زكي مبارك، المعارك الأدبية بين طه حسين وزكي مبارك، الزهراء للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥
- ٢٨ - كريمة زكي مبارك، زكي مبارك ونقد الشعر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط٨، ١٩٨٧.
- ٢٩ - كريمة زكي مبارك، زكي مبارك، حافظ إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.
- ٣٠ - لويس عوض، أوراق العمر

٣١ - محمد الدسوقي، طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، دار المعارف، سلسلة اقرأ، د.ت

٣٢ - محمد محمود رضوان، عبقرى من سنتريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م

٣٣ - محمد محمود رضوان، عبقرية زكي مبارك، مكتبة مصر، ٢٠٠٠  
٣٤ - الموازنة بين الشعراء.

٣٥ - نبيلة الشوربجي، وعفاف دانيال، علم النفس والشخصية، الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م

### ثانياً: الرسائل الجامعية:

- حاتم دياب أحمد، أدب الاعتراف في نثر عبدالرحمن شكري، دراسة أسس الإبداع الفني، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الألسن، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٨م

### ثالثاً: الدوريات:

١ - البلاغ - ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ - إلى معالي وزير المعارف.

٢ - البلاغ - ١٩ أغسطس ١٩٤٧ - الحديث ذو شجون.

٣ - البلاغ - ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ - طه حسين بين البغى والعقوق.

٤ - البلاغ - ٢٤ يوليو ١٩٣١ - قلمي بين الصدا والصقال.

٥ - البلاغ - ٢٧ مايو ١٩٤٧ - موشحات ابن نباتة المصري.

- ٦ - البلاغ - ٨ أغسطس ١٩٥٠ - طه حسين اليتيم.
- ٧ - البلاغ، محمد محمود رضوان، عبقرى من سنن تريس - ٣١ يناير ١٩٥٠
- ٨ - الثقافة، عبد الله خورشيد - ١٦ يناير ١٩٧٥ - زكي مبارك زعيم الأدب الوجداني.
- ٩ - دار الهلال، زكي مبارك، ليلى المريضة فى العراق
- ١٠ - دار الهلال، زكي مبارك، ذكريات باريس، ٢٠٠٢م
- ١١ - الرسالة - ١٤ أغسطس ١٩٣٨ - هذه دارى وهذا وطنى ولكن أين أحبائى!؟
- ١٢ - الرسالة - ١٨ أبريل ١٩٣٨ - عبقرية الشريف الرضى.
- ١٣ - الرسالة - ١٩ فبراير ١٩٤٠
- ١٤ - الرسالة - ٢ يناير ١٩٣٩ - أغرب ما رأيت فى حياتى.
- ١٥ - الرسالة - ٢١ يونيو ١٩٤١ - الحديث نو شجون.
- ١٦ - الرسالة - ٢٦ مارس ١٩٣٤ - النثر الفنى.
- ١٧ - الرسالة - ٢٩ يوليه ١٩٤٠ - إليك أعتذر أيها الغزالي.
- ١٨ - الرسالة - ٤ يناير ١٩٤٣ - خواطر ليلة الميلاد
- ١٩ - الرسالة - أمين الخولى، ١٩ أكتوبر ١٩٣٩، أسماء وأحاديث فى منزل الدكتور طه حسين.
- ٢٠ - الرسالة أحمد أمين - ٢ أبريل ١٩٣٤ - كتاب النثر الفنى فى القرن الرابع.

- ٢١ - الرسالة، احمد حسن الزياتي - ٢٩ يونيو ١٩٤٢ - الصفاء بين  
الأدباء.
- ٢٢ - الكاتب - بدر الدين، نوفمبر ١٩٧٥ م - عن الأدب والفن.
- ٢٣ - الهلال - أول ديسمبر ١٩٣٨ - أنا نفسي.
- ٢٤ - الهلال، تيمور - مايو ١٩٦٦ - زكي مبارك: فتى سنتريس.
- ٢٥ - الهلال، محمود تيمور - مايو ١٩٦٦ - زكي مبارك: فتى  
سنتريس.

